محمد علي اليوسفي

مِمْلَكَة الأُخَيْضَر

رواية

إهداءات

* إلى دانية؛ من حاضنتها الزجاجيّة كان رفيف الفكرة.

* إلى أُنْسِي؛ ذكرى هذا الحوار في نيقوسيا، ربيع يوم أحد، وصيد قريدس (1990/4/1): ـ بابا، ماذا تكتب كلّ يوم؟ ـ حكاية طويلة؟ ـ لماذا؟ ـ لكي تقرأها عندما تكبر. ـ لكن، إذا كبرتُ أنا، هل تكبر أنتَ أيضاً؟ ـ طبعاً! وعندما تكبر، هل تصير شيخاً هرماً؟ ـ طبعاً! ـ يا حرام! سوف تموت، وأقرأ أنا، الحكاية، فأتذكّرك، وأبكي..

* إلى كلّ من يتعثّر في خطوات طفل...

* وأنت؟ هل غضبت؟ هوذا مكان لاسمك ( )

امضاءات

ـ ريحان؛ خادم مملكة الأخيضر،

ـ تويتو مدوّن الدفتر الكبير تحت إشراف:

ـ بريبش؛ راصد الكنوز،

ـ وعنهم؛ المؤلّف: م. ع. ي

أنا أتكلّم...

اسمي آسَرة...

لا أحد يعرف عُمْرَ جَدْجُودَة عندما تركَتْنَا. ربّما كان 100 أو حتّى 111 كما قالتْ ماما؛ لذلك صار حجمُها أقلّ من 1 . كانت تشكو من أمراض كثيرة، تفتح عيناً واحدة وتقول لي: «الرُّوزَاتِيزْم! الرُّوتَامِيزْم!» ثم تغمض عينها، وتخبطُ ركبتيْها وهي تنظر إلى السّقف وتخاطب السماء.

بعد جدجودة هناك ماما. كانت تغنّي ولم تعد تعمل الآن. صوتها جميل عندما لا تكون غاضبة. وهي تغضب الأشياء كثيرة، وخاصة إذا شاهدت الآخرين يغنّون.

أمّا بَابَا فهو بَابَا جابر طبعاً.

آه! نسيت اسم ماما! السبب أنني أناديها كلّ يوم ماما. لكنْ، لو سُئلتُ، لأجبتُ فوراً: «ماما اسمها مريم، وبابا اسمه جابر الطرودي. وهو يعمل بائعاً للثياب المستعملة. الناس يسمّونها، كما قال لي: فريب، بالة، روبافيكيا، وهناك من يقول روبابيكيا أيضاً».

أصدقائي كثيرون:

أوّلهم بُوشْوِيشَة المتقلّب، والذي يصبح اسمه ريحان عندما ينتقل إلى مملكة الأخضير، وقبل ذلك؛ ريحان بُوشْوِيشَة، عندما يكون في طريقه إليها.

وهناك نَمِير الذي يصعب عليَّ وصفُه من دون التحدّث عن آسر:

فعندما يتسبّب آسر في مشكلة، يصير عندنا (آسر + مشكلة).

وعندما نقوم بعملية الطّرح (آسر ناقص مشكلة) نحصل على آسر وحده، ويغيب نَمير.
وحتّى إذا أجريْنَا عمليّة الضّرب فإنّ آسر (يصير كثيراً).
أمّا عملية القسمة (آسر على نَمِير) فإنها تخرج بآسر بريئاً من أية مشكلة. لذلك يصعب التعريف بنَمِير. وهذه مسألة يصعب علينا أن نفهمها الآن.
أسهل منه تَانْغُو. وهو كلب من فصيلة «الكانيش». ذكي جداً وغيور: وضع بابا وماما في مشكلة (دائماً سببها نَمِير، وليس آسر...) لأنه تصرّف هكذا: إِمَّا أَنْ أكون أنا، مثل آسر، عندكم، وإلا مرَّرْتُ عيشَتَكُمْ. فقرّر بابا التخلّص منه... تصوَّروا أنّ ماما كانت تُطعم آسر، وهو صغير، بالملعقة. فيأتي تانغو ويريد الملعقة التالية له. حاولتْ ماما أن تجد حلاًّ لهذه المشكلة. فصارت تطعم آسر ملعقة من «السيريلاك» ثم تضع محتوى الملعقة التالية على الأرض أمام تانغو. غير أنه يرفض أكلها، ويريد الأكل من الملعقة مباشرة، مثل آسر، ومن يد ماما أيضاً. ولّما رفضت ماما هذا الشرط، صار تانغو يقفز ويخطف الملعقة كلّها بفمه. فتضطرّ ماما إلى تناول ملعقة أخرى نظيفة «هذي عيشة هذي؟» وقبل طرده، أتلف ألعاب آسر بالعضّ والتمزيق.
ولابدّ أن أتحدث عن الجندي الدوّاس أيضاً وعن بُوقْرِلُّو؟
فالجندي الدوّاس قصّته غريبة، وكذلك صاحبه الدّائم ذو إصبع الحنّاء. لقد ضاعا في الطريق إلى الثكنة، وفَاتَهُمَا الذهاب إلى الجبهة. لذلك ظلاَّ تائهين أعواماً وأعواماً، حتى اليوم. والكلمات الأثيرة لدى إصبع الحنّاء وهو يستحثّ صاحبه الدوّاس هي «هيَّا، هيَّا، الخمسة ما حررش!» ولمن لا يعرف معنى «الخمسة ما حررش» وخاصة إذا لم يكن من بلاد الجندي الدوّاس وصاحبه إصبع الحنّاء، فهي تشير إلى أن الساعة هي الخامسة إلا بضع ثوان. وللعلم فإننا سوف نلتقي بالجندي الدوّاس، وبصاحبه ذي إصبع الحنّاء، في الطرقات الثلاثة الأخرى المؤديّة إلى مملكة الأُخَيْضر، أي إلى هذه الحكاية، ونرى الدّور الكبير الذي لعباه في محاولة قلب المملكة. تذكّرتُ: إصبع الحنّاء اسمه خنصر الحنّاء أيضاً.
أمّا بُوقْرِلُّو فهو حشرة سوداء يعرفها الجميع. غير أنّ اسمها يختلف حسب اللغات واللهجات. وتقول موسوعتي المصوّرة إن اسمه الجُعَل. وله جسمٌ مُحَدّب، صلب. ورسغ مكوّن من خمس عُقَل وقرن استشعار يتشكّل من ثماني عُقَل إلى إحدى عشرة عُقْلَةً من النّوع الورقيِّ. والسّاق، في قائمتيه الأماميّتين، مفلطحة تساعد على الحفر، ومسلّحة بأشواك. يتغذّى من روث المواشي والنباتات...
هذا كلام كثير، ولم نصل بعد إلى الأصدقاء الآخرين في مملكة الأخيضر، فلو ذَكَرْتُ أبَّة سائق شاحنة الفحم، ودَيْدَحَان مفكّر الامبراطورية، لغضبتْ رفيف الماء التي تلبس القطيفة الحمراء، وبربيش راصد الكنوز، وكذلك حامل الفخاخ. لكن الغضب الأكبر قد يأتي من تويتو، وكشبور... وغيرهم... وغيرهم.
فلنذهب إليهم!

بعيداً عن مملكة الأخيضر

جَدْجُودَة

أصغر مَنْ في البيت «جَدْجُودَة» هكذا أنادي جدَّتي. كل يوم تنحني أكثر. سوف تصغر جدجودة كل يوم ويكبر آسر، فيصير قادراً على ملامسة صدرها وهي واقفة. تخبّىء جدجودة كلّ شيء في صدرها.

وفي الصيف، لابدّ أن تبقى وحدها في البيت، لأنّها لا تستطيع صعود الدَّرَج بسهولة. أما آسر فسوف يخرج معنا للسهر صيفاً في حديقة الملاهي. وهناك يلعب بالفيل والأرجوحة، ويشرب العصير، ويأكل البيتزا. وعندما نعود متأخّرين نجد جدجودة ساهرة على الشرفة، وهي تحرك ساقيها وتهدهد نفسها فوق عربة آسر، وقنّينة الحليب في فمها.

يقول آسر: «بي... بي...» فتخبّىء جدجودة قنّينة آسر وراءها. لكنها تنسى القيام من العربة.

تضع ماما إصبعها السبّابة على خدّها وتقول:

ـ يا فرحتي بك، يا حماتي منَّانَة!

ـ كغ!

عندئذ تنكمش جدجودة أكثر وتخبّىء رأسها بين يديها وهي لا تزال في العربة.

يركض آسر إلى غرفته ليتفقّد ألعابه، فيجد السيارات الصغيرة مصفوفة وراء بعضها في طريق طويل. يبدأ الطريق من باب الغرفة ويدخل حتّى أسفل السرير.

يغضب آسر لأنّ جدجودة عادت مرّة أخرى ووضعت سيارة الإطفائية الحمراء، ذات السلّم الأصفر، في مقدمة السيّارات. فيتناولها ويدخل تحت السرير ليضعها في المؤخّرة. وهناك يجد الجدة قد نسيت شيئاً خلف سيارة الشرطة، فيقول: «ماذا تفعل نواة حبّة مشمش وراء سيارة الشرطة؟»

يرمي بنواة حبّة المشمش من نافذة الطابق الرابع فتسقط على رأس بُشْوِيشَة.

بُوشْوِيشَة

خَبّأتْ جدجودة في صدرها قطعة حلوى، وكذلك القرد الصغير الذي وجده آسر في بيضة المفاجآت، وصفّارة الشرطة التي تنظم السّير.

عرف آسر ذلك السرّ من بوشويشة.

أطلّ عليه بوشويشة من الشباك وقال له:

ـ لماذا ترمي بكلّ شيء على رأسي؟ أنا لست قطّاً أسود!

فردّ عليه آسر:

ـ أنت قطّ أسود.

ـ لو كنتُ قطّاً أسود لما رأيتني في اللّيل، قال بوشويشة.

ـ حتّى في اللّيل أرى عينيك تلمعان، قال آسر.

إذ ذاك يغضب بوشويشة ويقول:

ـ عندما ترى قطّاً، ينبغي أن تقول هذا قطّ، حتّى ولَوْ كان أسود. وعندما ترى بوشويشة، عليك أن تقول: هذا بوشويشة، وكَفَى.

ثم يختفي بوشويشة من النافذة وهو يصيح:

ـ سوف أرسل إليك بالقط الأسود!

يغضب آسر بدوره ويلقي بمذياعه الصغير على الأرض فتسكت الموسيقى.

جدجودة تشخر

أراد آسر أن يُصلح الراديو الصغير فلم يستطع.

فتحه فوجد أسلاكه سليمة. حرّك البطاريات الصغيرة فأصدر الراديو خشخشة. قال آسر: «لابدّ من تغيير البطاريات» ذهب إلى خزانة بابا وتناول بطاريّتيْن: وضعهما في الراديو بإتقان. فظلّ الراديو يخشخش والموسيقى لا تخرج من بطنه.

وضع آسر الهوائيّ الذي يسمّيه بابا «الآنتين» في فمه. فتكلّم رجل ثم سكت.

رأى آسر جدجودة نائمة على جلد الخروف. كانت تشخر بقوة، فاتحة فمها. وضع آسر «الآنتين» في فمها، وأسند المذياع إلى المخدّة. وبدأ يحاول إصلاحه من جديد.

الآن... الجدّة تشخر والراديو يشخر.

انقلبت جدجودة على جانبها الأيمن فانقلب الراديو معها وتحرّك الهوائي. ظنّت الجدة أن في فمها ذبابة.

تكلّم الرجل بوضوح في المذياع وقال:

ـ سيداتي، سادتي، إليكم الآن نشرة الأخبار.

كفّت الجدّة عن الشخير وبدأت تستمع إلى نشرة الأخبار مع آسر.

هدايا جميلة

حصل آسر على هدايا جميلة في عيد ميلادعه.

وكان من بين تلك الهدايا قوالب بلاستيكية مختلفة الأشكال. ينقسم قالب ميكي ماوس إلى قسمين. يملأ آسر القالب بمسحوق الجبس المبلول ثم يغلقه. وعندما يجفّ الجبس، يفتح آسر القالب فيجد تمثالاً صغيراً لميكي ماوس، وآخر لصديقته ميني الصغيرة، والكب بلوتو أيضاً. وكلّ شيء.

لكن آسر أضاع الفرشاة التي يلوّن بها تماثيل الجبس، لذلك تناول المقصّ وذهب إلى جدجودة النائمة، فقصّ من شعرها الأبيض وصنع فرشاة. وهذه الفرشاة ضاعت أيضاً، لأنْ شَعْر جدجودة يُفلت دائماً من بين أصابع آسر ويلتصق بعلبة التلوين، مع أنه ربط الشعر جيّداً بالمطاط.

قال آسر:

ـ مازال في رأس جدجودة شعر كثير. عندما تنام على بطنها أقصُّ لها شَعرها من الخلف.

جدجودة تتكلّم وحدها

عندما تتعب جدجودة تبقى تتكلم وحدها إلى أن ترتاح من الكلام.

تنظر إلى آسر. تتأمله طويلاً وكأنّها لا تراه. تحدّق في قدميه الصغيرتين وتتكلم وحدها. تحرّك رأسها وتتكلم وحدها. تبتسم لآسر ثم تتكلّم وحدها. تتنهد وتتكلم وحدها.

قال آسر لجدجودة:

ـ ارفعي صوتك حتّى أسمع.

تنهّدت جدجودة ورفعت صوتها قائلة:

ـ قَبْلَكَ أنتَ، كنتُ أنا صغيرة. وبعدي أنا صرتَ صغيراً. وبعدك أنت، يصير ابنك صغيراً.

هذه الحكاية لم تعجب آسر.

عاد إلى سيّارته الصغيرة: «عَنْ... عَنَنَنْ... بيبْ!»

قالت جدجودة:

ـ لا تترك الحنفيّة تقطّر في الحمَّام.

قال آسر:

ـ عَنْ عَنْ... عَنَنَنْ... بيبْ!».

هدية أخرى

حصل آسر على هدية أخرى: علبة كبيرة مملوءة بالجنود والدّبابات، والمروحيات الصغيرة والطائرات الكبيرة.

قال الجندي لآسر:

ـ أنا ضابط! لا تضعني هنا وراء الجنود!

وضعه آسر في المقدّمة.

قال الضابط:

ـ يجب أن تكون الدّبّابات في المقدّمة.

انطلقت الدبابات الخضراء تهاجم الدبابات السوداء. أمسك آسر بطائرة بين أصابع يده اليمنى، وأخرى بين أصابع يده اليسرى. حلّقت الطائرتان فوق الجنود «بُمْ... بُمْ... بُمْ» وعادَتَا سالمتيْن.

نسي آسر أن يحرّك جنود الجيش الأسود. فظلّوا ينظرون لى الطائرتين.

عندما انتهى آسر من اللعب، وضع الجنود كلهم في صندوق الحرب. وهناك ينام جنود آخرون حصل عليهم في عيد ميلاده السابق، وضاع منهم الكثير.

في الليل حلم آسر بضابط يتكلّم بالعربيّة ويصيح:

ـ النجدة!

حكاية الحَمَامَ في الشرفة

وضع آسر علبة كرتون كبيرة في زاوية من شرفة البيت. فجاءت حمامة وباضت فيها بيضتين، بعد أن ساعدها ذَكَرُها على إعداد العشّ داخل العلبة.

فقست البيضتان. وبدأ الزغلولان ـ وهما الفرخان الصغيران ـ يكبران. فصارت أمهما تعلّمهما الطيران على أرضية الشرفة.

لكن حمامة أخرى جاءت. وباضت بيضتين في زاوية أخرى من العلبة.

قال آسر:

ـ ماذا أفعل؟ أأنتظر الحمائم كلها أم أهجم على الفرخين؟ وإذا أخذت الفرخين، هل تهرب الحمامة الثانية وتترك البيضتين؟

قال آسر أيضاً:

ـ أأُضحّي بالزغلولين أم بالبيضتين؟

تردّد آسر كثيراً حتى صار في العلبة زغلولان يستعّدان للطيران، وزغلولان بلا ريش.

فجأة أطلّ الذَّكر البنيّ الجميل ووقف على سياج الشرفة.

قال آسر:

ـ إذا انتظرتُ أكثر، سوف يطير الفرخان الكبيران مع أبيهما وأمهما!

وإذا لم أنتظر، قد تنفر أمّ الزغلولين الجديدْين، فماذا أفعل بهما وهما بلا ريش؟

رجل الكهف

صاح بابا:

ـ كُفَّ عن التشويش واذهبْ إلى غرفتك!

ذهب آسر إلى غرفته محتاراً؛ بماذا سيلعب؟

قال:

ـ سألعب بالسيارات!

ثم قال:

ـ سألعب بالحيوانات!

ثم قال:

ـ سألعب بالسيارات والحيوانات!

وضع آسر الديناصور وراء القطار،

والماموث وراء السيارة،

والرخّ وراء الطيّارة،

والنّعامة وراء الدّراجة،

والحوت وراء الغوّاصة.

وكان آسر يتكلم وحده، من دون أن ينتبه إلى أنّه يفعل مثل جدجودة عندما تتكلم وحدها.

تناول آسر رجل الكهف الذي يشبه القرد، واحتار أين يضعه.

فَكَّر آسر ثم قال:

ـ رجل الكهف يركب القطار والسيّارة والطيّارة.

حكاية الحمَام مرّة أخرى

اشتكت ماما من الرائحة الكريهة في الشرفة. وقال بابا نذبحها كلّها يا آسر، ونترك لك فرخاً واحداً.

لكن بابا أمسك بزغلولين فقط وطارت الحمامات الأخرى.

وضع آسر الزغلولين في قفص ثم استبدل أحدهما بأرنب من أسامة.

صارت الأمّ الثانية تعيش في حالة رعب، والفرخان الجديدان ينقران العلبة وحدهما لأنّ أمهما تنام خارج العلبة ليلاً. لقد باتت تفعل ذلك بعد أن رأت آسر ينظّف القفص ويضع الأكل للزغلولين الآخريْن.

أعاد أسامة الزغلول إلى آسر وطلب أرنبه.

طار أحد الزغلولين في المطبخ، فانكسرت صحون مع سقوطه.

وانقلبت طنجرة الحليب الساخن لأن الزغلول لم يجد شيئاً يتمسك به على الجدران.

غضب بابا وذبح الزغلولين فلم يأكلهما أحد.

أعطت ماما الحمامتين لجارتنا سلمى.

جارتنا سملى وزوجها وأولادهما لا يعرفون الحكاية كلها. وهم يستطيعون أكلها جاهزة، بلا ريش.

مطر في الصحراء

سهر آسر كثيراً. شرب العصير والكازوز والماء. وأكل البطيخ أيضاً.

أراد أن يشرب قبل النوم، فمنعه بابا من شرب الماء قبل النّوم.

حلم آسر بالصحراء.

أيقظتْه ماما وناولته كوب ماء.

قال آسر:

ـ إيه!

ثم عاد إلى النّوم.

حلم بمطر ينزل في الصحراء.

وفي الصباح كان فراشه مبلولاً.

خاتمة لحكاية الحمام

كبُر الزغلولان المتبقّيان في العلبة. وعلّمَتْهُمَا أمُّهُمَا الطيران.

طار الأول ولم يعد.

أما الثاني فكان ضعيفاً.

قالت ماما:

ـ هذه الأنثى مريضة!

قال آسر:

ـ سوف أساعدها على الطيران.

ثم ألقى بفرخة الحمام المريضة من أعلى الشرفة.

طارت فرخة الحمام قليلاً قم هَوَتْ على الأرض.

هجم عليها القط الأسود والتهمها.

غضب آسر كثيراً ولم يعد يأكل الحمام.

بعد ذلك ظهرت حبوب حمراء ذات بثور بيضاء على وجه آسر.

سأل الطبيب ماما:

ـ هل تربون حيوانات في البيت؟

أجاب آسر:

ـ الآن طارت الحمامات كلها!

بوشويشة يطل من الشبّاك

منذ أيام لم يأت بوشويشة ويطلّ من النافذة. وحتّى عندما يطلّ فهو يظهر ويختفي بسرعة.

أطلّ هذا الصباح من وراء بلّور النافذة وقال «بقرة!» فسأله آسر:

ـ لماذا تغيب كثيراً، وتأتي لتقول بقرة؟

ـ أنا لا أغيب بل أعود إلى أمكنة غلط في الحكاية.

ـ ولماذا تفعل ذلك؟ سأله آسر.

ـ لأنّ الحكاية لا تمشي في خط مستقيم، أجاب بوشويشة وأضاف صائحاً: آي! آي! كدت أسقط من حافة النافذة! كلّ شيء يحدث في وقت واحد. وأنتَ لا تستطيع فَهْمَ كلّ شيء إلا إذا قمتَ بالفرز والمقارنة، والتقديم والتأخير. هل تستطيع أن تحكي كل الحكايات في وقت واحد؟

سكت آسر ولم يجب. فأعاد بوشويشة السؤال:

ـ هل تستطيع أن تحكي كل الحكايات في وقت واحد؟

هزّ آسر رأسه بإشارة موافقة ولم يتكلم. فعاد بوشويشة إلى السؤال؛ لكنّ آسر عاد بدوره إلى هز رأسه بالموافقة.

ـ لماذا لا تتلكم؟ سأله بوشويشة.

ـ إذا تكلّمتُ، لابدّ أن أجيب بنعم، أو بلا، قال آسر، وعندما أسكت، أقول في قلبي كلّ شيء.

بعد ذلك عاد آسر إلى النوم، لأن الصباح مازال مبكّراً.

نَمِير وتَانْغُو

كان آسر نائماً. أحسّ بقرصة في فخذه فقام من النوم. قال له بوشويشة:

ـ حلمتُ أنك تحلم بي فجئت لأوقظك.

ـ ولماذا لا تأتي كلّ يوم؟ سأله آسر.

ـ لماذا تريد أن آتي كلّ يوم؟ ردّ بوشويشة مستنكراً، وأضاف: أنتَ تكلّمني ولا تعرفين. وأنا أكلّمك ولا أعرفك؛ معنى ذلك أنك تكلّم شخصاً آخر لا تعرفه، وأنا أكلّم شخصاً آخر لا أعرفه. إنه شخص ثالث نكلّمه من دون أن نعرفه أو نعرف حتّى اسمه!

ـ أنا أعرف اسمه! قال آسر فرحاً، اسمه نَمِير. وأحياناً يجلس بجانبي فلا تراه جدّتي وتكاد تجلس عليه. عندئذ أصيح: «يا جدتي انتبهي! جلستِ على نمير!» فتقف جدجودة بصعوبة وتنفض بلوزتها من الخلف.

ـ وأين كلبك الصغير؟ سأله بوشويشة.

ـ آه! تانغو! صاح آسر متأسّفاً، لقد أعطاه أبي للناس.

ـ ولماذا أعطاه لهؤلاء الناس؟ سأله بوشويشة.

ـ لأنه يأكل معي، وينام معي، ويختبئ في سروالي الأزرق ليتبّول فيه. وعندما عرف أن بَابَا لا يريده، صار يمزّق بأنيابه كل ما يجده من ثيابي وألعابي.

ـ هكذا أحسن! قال بوشويشة.

ـ ولماذا تقول «هكذا أحسن»؟ سأله آسر.

ـ لأن تانغو ينبح كثيراً عندما يراني من الشباك. أما أنت فتكتم السرّ.

ثلاث نقرات بطيئة وثلاث سريعة

سمع آسر ثلاث نقرات بطيئة وثلاث نقرات سريعة على الشباك. فانتبه إلى النّقرات الصغيرة لأنّه يعرف أنّ الحَمَام يفعل ذلك مع طلوع الفجر. لكنّه لم يستطع مقاومة رغبته في فتح الشبّاك. فإذا هو بوشويشة يحتجّ:

ـ أنتَ لا تعرف الجغرافيا وتريد أن تعرف الوقت؟

ـ وما هي الجغرافيا؟ سأله آسر.

ـ الجغرافيا هي الخروج من البيت، أوضح بوشويشة.

ـ لكنني لا أخرج الآن، ردّ آسر.

ـ الآن، زمن. قال بوشويشة، وخارج البيت جغرافيا. لا تخرج الآن واخرجْ بعد الآن. ولكي تصير الحكاية حكاية يجب أن تخرج من البيت، حتى القطط تعيش في الجغرافيا.

ـ والبيت، أين يعيش؟ سأله آسر.

ـ البيت مثل جدّتك، يقف في الجغرافيا، فتحرّكه هي. ويسقط مع الوقت.

ـ جدّتي لا تخرج، قال آسر عندها رُوزَاتِيزْمْ في ركبتيْها.

ـ جدّتك لا تخرج، قال بوشويشة، لأنها مثل ساعة قديمة، لم يبقَ فيها إلا البندول.

ـ وما هو البندول؟ سأله آسر.

ـ تيك، تاك، تيك، تاك... قال بوشويشة، هو الرقّاص الذي يقسّم الدقائق.

ـ لماذا تتكلم عن أشياء صعبة في وقت واحد؟ سأله آسر.

ـ لأنني أخطأت مرّة أخرى، قال بوشويشة، ووقعت في أمكنة غلط من الحكاية.

ـ وهل ستبقى معي أكثر؟ سأله آسر.

ـ كلاّ، قال بوشويشة، ينبغي أن أغيب وأظهر، حتى أعرفك أكثر.

نَمِير سيذهب إلى ماما وتلده

تحدّث آسر عن بوشويشة أمام بَابَا، فسألة بابا:

ـ ومن هو بوشويشة هذا؟

أجاب آسر:

ـ بوشويشة ليس آسر، وآسر ليس بوشويشة.

ـ ومن يكون بوشويشة إذاً؟

ـ هو أنا، عندما أرى بوشويشة ولا أعرفه، وبوشويشة عندما يراني ولا يعرفني.

ـ يا له من منطق! قال بابا ضاحكاً.

ـ اسمه منطق؟ كلا، اسمه نَمِير، قال آسر موضّحاً.

ـ ومن هو نَمِير؟ سأله بَابَا، مرّة أخرى.

ـ هو أخي الذي سيذهب إلى ماما وتلده، أجاب آسر.

بُمْ! طقْ!

من غرفته، سمع آسر بَابَا ومَامَا يتخاصمان. سيطردانه إذا التحق بهما الآن. أطلّ من ثقب الباب وأغلق فمه جيداً حتى لا يتكلم. كتم أنفاسه. لكن قلبه يدق بقوة ويقول له: «لا تلتصقْ بالباب!».

آسر يريد أن يعرف مَنِ الذي سيصْفق الباب بقوة، ومَنِ الذي سيبدأ بكسر الصّحون، غير أن قلبه يقول له: «ستأتي أمك، وتفتح الباب بقوة، فتفطّس أنفك!»

ـ سأفقد عقلي من الإنزواء في هذه الشقّة، صاحت ماما.

ـ عندي شغل، قال بابا.

لابدّ أن نخرج قليلاً للنزهة، صاحت ماما.

– ستصلني «بالات روبافيكيا» جديدة هذا المساء، ولابدّ أن أكون في الدكان، قال بابا.

ـ هذا هو عذرك كلّ يوم، قالت ماما ثم صاحت، بالات، بالات، بالات... ما هذه العيشة بين الجدران والبالات؟

بُمْ! انصفق الباب وخرج بابا.

بُمْ أخرى! انصفق باب المطبخ.

طقْ! دررررنْ! بدأت الصحون تتكسّر.

ـ يا بوشويشة تعال، صاح آسر، نمير لايريد الخروج.

يد القط الأسود

جاء بوشويشة وقال:

ـ مملكة الأُخَيْضَر مازالت مغلقة!

سأله آسر:

ـ ولماذا تظلّ مغلقة هكذا؟

أجاب بوشويشة:

ـ أنتَ لا تعلم... مازالت الحراسة عند الحرس الأخضر.

ـ والحَرَس الأخضر، أيمنع الدخول؟ سأله آسر.

ـ نعم، أجاب بوشويشة، لأنّ لونه بلون الأبواب، والأبواب مغلقة الآن.

ـ إذاً، لا يمكن الدخول؟

ـ ولا يمكن الخروج أيضاً، قال بوشويشة، تستطيع أن تلعب بالدّبّ البنّي.

التفت آسر إلى نمير، وقال له:

ـ تستطيع أن تلعب بالدبّ البنّي، اليوم أيضاً. أما أنا فسوف أصنع رمحاً.

أخرج آسر علبةً يخبّىء فيها سبعين شيئاً تحت السرير ليدقّ مسماراً في طرف عصا. صار يملك الآن رُمْحاً معقوفاً. فكرة! لماذا لا يدّق مسامير أخرى في طرف العصا حتى يصير رأسُ الرُّمْح أقوى من يد القط الأسود ذات البراثن البيضاء الحادة؟

صار آسر يملك رُمْحاً اسمه «يد القطّ الأسود».

أربع طُرُق إلى مملكة الأخيضر

ظلّ آسر ينتظر الفرصة المناسبة لزيارة مملكة الآخيضر. لكنْ اللعنة! كيف تأتي هذه الفرصة؟

جاء بوشويشة، كعادته، ليغيب بسرعة. فسألة آسر:

ـ متى أذهب إلى مملكة الأخيضر؟

ـ في الوقت المناسب طبعاً! أجابه بوشويشة.

ـ وما هو هذا الوقت المناسب؟ سأله آسر.

ـ عندما أراك وأعرفك وتراني وتعرفني.

ـ لكنني أراك وأعرفك!

ـ أما أنا فلا! قال بوشويشة مبتسماً.

ـ وكيف أصل إليها؟ سأله آسر.

ـ تتخيّلها أوّلاً. ألم تتخيلها بعد؟

ـ بلى، أجاب آسر، فيها إوزّ كثير، وماء.

ـ ثم عليك أن تنتظرها ثانياً. أَلَسْتَ تنتظرها الآن؟ سأله بوشويشة.

ـ بلى، أنا أنتظرها، أجاب آسر.

ـ لم تبقَ إلا الطريق الثالثة، قال بوشويشة.

ـ وما هي الطريق الثالثة؟ سأله آسر.

ـ أن تذهب إليها! أجاب بوشويشة.

ـ ولكن، كيف أذهب إليها، سأله آسر، وهل أذهب وحدي؟

ـ سوف يرافقك ريحان! أجاب بوشويشة، ريحان خادم الملكة!

ـ ومتى ذلك؟

ـ عندما تكتشف الطريق الرابعة! قال بوشويشة.

ـ لكنك لم تقل لي إنّ هناك طريقاً رابعة؟ قال آسر مُحْتجّاً، ثم أضاف: أَلاَ تُجيد العدَّ حتى الأربعة؟

ـ أرأيت! قال بوشويشة، إنك لم تبلغ الفرصة المناسبة بعد!

ـ وما هي هذه الفرصة؟ سأله آسر.

ـ عندا تكتشف الطُّرُق الثلاث، وتبدأ برابعتها! قال بوشويشة.

ـ وما هي رابعتها؟ سأله آسر.

ـ أنت! قال بوشويشة.

آسر ونمير يتلاكمان

حلّ فصل الخريف فتفرّغ نمير إلى جمع الحمص اليابس، بعد ذلك أخفى حبات الحمص اليابس في علبة آسر. وكان يعرف أن جدجودة المسكينة لا تملك أسناناً في فمها.

ظلّ نمير يُدخل حبّات الحمص في قطعة الكاتو ويدفعها بإصبعه حتّى لا تظهر.

قال آسر:

ـ نمير هو الذي فعل ذلك!

قالت الجدة:

ـ خنقْتَني لأموت...

وظلّت تشتم نمير حتّى صار يرتجف. حدث ذلك بعد أن ابتلعت الجدّة نصف حبّات الحمص وبصقت نصفها الآخر ثم قالت:

ـ على الأقل، حبّة واحدة تكفي!

وفي الغرفة بدأ آسر ونمير يتلاكمان خوفاً من موت الجدّة.

نادت الجدّة آسر وبدأت تقصّ ما تبقّى من قطعة الكاتو، فتُخرج الحمص، وتضعه جانباً، ثم تعطي قطعة كاتو صغيرة إلى آسر، وقطعة إلى نمير.

كان نمير يأكل ويضحك، والجدّة لا تراه.

الاسم السرّي

تك! تك! تك!

طق! طق! طق!

ثلاث نقرات بطيئة وثلاث نقرات سريعة.

أطلّ بوشويشة من الشباك فسأله آسر:

ـ متى أذهب معك يا بوشويشة؟

ـ لم يحن الوقت بعد، يا آسر.

ـ ولماذا سمّوني آسر؟

ـ ذلك اسمٌ لهم!

ـ لهم، أم لي؟

ـ لهم!

ـ كيف؟

ـ لأنهم اختاروه لك كي ينادوك به.

ـ وقبل ذلك؟

ـ كان اسمك السرّي نمير. هو اسمك الحقيقي مع أنّك سوف تنساه.

ـ أنا أعرفه!

ـ لعلك تعرفه لأنك قريب منه. أما الكبار فسوف ينسونه. وهم يغيّرون، أحياناً، أسماء أبنائهم لأنها أسماء لا تناسبهم كما يعتقدون.

ـ وأنت يا بوشويشة، ماذا كان اسمك الأوّل؟

ـ هنا، أم هناك؟

أسرع بوشويشة إلى تغيير سؤاله إلى جواب. لماذا؟ ربّما لأنه يخفي سرّاً ولا يريد كشفه، فقال مبتسماً:

ـ ربّما كان اسمي الأوّل هو آسر!

ـ ولماذا كنتَ تحمل اسمي؟ سأله آسر.

ـ ربّما لأنه الاسم الذي يقودني إليك وأنا لا أدري!

لماذا يا آسر؟

أنتَ غير مهذّب وتنقصك التربية، قالت ماما لآسر، لماذا تخبر صديقك أسامة بأنني تخاصمت مع أبيك، فيخبر أمَّه سلمى بأنني كسرت الصّحون؟

آ... لماذا تردّ على الهاتف وتقول لكوثر إن ماما قالت لك بأنها غير موجودة؟

لماذا لم تقل لي إنك بللت فراشك الليلة الماضية أيضاً؟

آ... لماذا تدّعي أن نمير هو الذي خرّب الراديو الصغير؟
لماذا تكسّر لي رأسي؟ لماذا تمرّر لي عيشتي مع أبيك؟

ركض آسر إلى غرفته وبدأ يضرب نمير: هَهْ! هَهْ! هه!
نمير: آيْ! آيْ! آيْ!
آسر: هَهْ! هَهْ! هَهْ!
عندئذ التحقتْ به ماما لتراضيه قليلاً، لكنها صاحت:
ـ لماذا مزّقتَ الدُّبَّ البنيَّ؟ آ... لماذا؟
ـ أنا... لا... لم أمزّقه... قال آسر.
ـ تعال إلى هنا! قالت ماما.
ذهب آسر إلى هناك ورأى حرّاس مملكة الأخيْضر يهجمون.

آسر كثيراً

نمير لا يدخل. بابا لا يدخل. ماما لا تدخل. القط الأسود لا يدخل. اليوم هو يوم الحرس الأزرق. الجدّة تشخر. كويك. بُزْغُمْ. قِرُّو. قِرُّو. كويكْ. ويكْ...
ماما. مابا. باما. بوشويشة هرب.

جدجودة تشخر. الحرب تشخر. الدبّ هرب. ابتلع الطماطم. الدبّ لا يدخل. تانغو يدخل. الحمامة تدخل. الرّيش. ويك، ويك، ويك. يا بوشويشة غلط. بلع الطماطم. استيقظ. سقط في الشربة. بلع الطماطم.
نام الحرس الأزرق. نام الحرس الأخضر. آسر يدخل. الدبّ كسر الصحن. آسر كثيراً. جاء بابا. جاءت ماما. جدجودة تشخر.

درقْ درقْ
شعركْ تحرقْ
درق درق
رجلك تزلقْ
درق درق
رأسكْ دقْ

سينما

أتى بوشويشة بغصن جوز لاتزال حبّات الجوز عالقة به. وقال:

ـ الآن جاء دور السينما!

ـ كيف؟ سأله آسر.

ـ افتحْ هذه الحَبَّة واقسمْها شطرين.

تناول آسر حبَّةَ جوز ودقّها بحذائه فانفلقت شطرين.

ـ قرّبْ شطر الجوزة من عَيْنكَ، قال بوشويشة، قَرِّبْهُ أكثر!

وضع آسر شطر الجوزة أمام عينه اليمنى ثم قَرَّبَه أكثر.

ـ ثمة على الجانب الأيمن ثقب، هل رأيتَ فيه باباً وجحشاً أشهب يقف أمام الباب؟ سأله بوشويشة.

ـ نعم، رأيتُ باباً يقف أمامه جحش أشهب، أجاب آسر، أَهَذَا هو الفيلم؟

ـ الفيلم خارج الحبّة، قال بوشويشة.

أزاح آسر نصف الجوزة عن عينه وتلفّت حوله.

ـ أقصد في النصف الثاني من الحبّة، قال بوشويشة.

تناول آسر النصف الثاني من الحبّة ووضعه أمام عينه، فقال له بوشويشة:

ـ تستطيع الآن، أن تراه كما تشاء.

واختفى بوشويشة فجأة.

في النصف الثاني من حبّة الجوز، رأى آسر بطناً بعيداً، ويدين قريبتيْن.

وسمع بوشويشة يمضغ الجوز فقال له:

ـ أنت ساحر يا بوشويشة!

«الخَمْسَة مَا حَرَّرْشْ هَيَّا، هَيَّا...»

خرج آسر مع نمير، إلى الدّكان ليشتري خبزتين، وعلبة حليب، وعلبة دخان مضرّ بالصحّة.

قالت له ماما:

ـ اذهبْ وحدك ولا تخفْ. صرتَ رجلاً. انتبه للسيارات!

أمسك آسر بالسلّة من عروتها اليمنى ولم يترك نمير يمسك بالعروة اليسرى؛ ظلت السلّة تتجرجر على درجات السلم.

نادته ماما محذّرة:

ـ انتبه حتّى لا تسقط الفلوس من يدك.

في الطّريق إلى الدكان، قال نمير لآسر هامساً: «عندي دجاجة تبيض تحت سياج الحديقة. هناك توجد أمكنة وزوايا لا يراك فيها أحد ويمكن أن يختبىء فيها إنسان أو ديناصور!»

وفي الدّكان رأى آسر جنديّاً يشتري كلّ شيء بسرعة، وصديقه الجندي الثاني له خنصر مخضّب بالحناء، ويقول: «هَيَّا... هَيَّا... الخَمْسَة ما حَرَّرْشْ!» لكن الجندي الأول تذكّر، عند الباب، أنه نسيَ أن يشتري إبرة. فعاد إلى الدكان مرّة أخرى. وناداه صديقه ذو خنصر الحنّاء مرة أخرى: «هَيَّا، يا دَوَّاس، الخَمْسَة ما حَرَّرْشْ!»

اشترى آسر خبزاً وحليباً وعلبة دخان مضرّ بالصحّة، وعاد إلى البيت، يكرّر «هَيَّا، يا دَوَّاس، الخَمْسَة ما حَرَّرْشْ!» وعندما فتحتْ له ماما الباب قال لها: «هَيَّا، يا دَوَّاس، الخَمْسَة ما حَرَّرْشْ!» فقالت له: «أية مصيبة جديدة جئتني بها؟»

لم يسألها آسر عن معنى «الخمسة ما حررش» وقال: «هذه فزّورة لنمير». لكن نمير لم يستطيع الإجابة. فقال له آسر:

ـ ألمْ تَرَ الدوّاس كيف كان مستعجلاً، لأنه سيذهب إلى الحرب في الساعة الخامسة بالضبط؟

آسر يبعث برسالة إلى الجندي الدواس تبدأ بحرف الواو

عرف آسر أن الحرب اندلعت. ويكفي الطفل الذكي مثل آسر، أن ينظر إلى شاشة التلفاز حتّى يعرف أن الحرب اندلعت.

تناول آسر الصفّارة ونادى الجنود.

بعد ذلك أرسل نمير ليخبر الجندي الدوّاس بأن الحرب اندلعت والأعداء يُعدّون له فخّاً كبيراً: سيلقون عليك، وعلى صديقك ذي الخنصر المخضّب بالحنّاء، شبكة كبيرة من فوق الأشجار، والهدف من ذلك هو مَنْعُكُمَا من المشاركة في الحرب!»

احتجّ بابا على انبعاث الصفير القويّ من غرفة آسر، فصاح صيحة سمعها الدوّاس وصاحبه. وبذلك تجمّد كلّ الجنود ولم يُعلنوا الحرب.

وهذا هو نص الرسالة التي بعث بها آسر مع نمير. وهي تبدأ بحرف الواو:

«والقط الأسود يكبر. صار بحجم الفيل. أمس رأيته يمرّ على الجدار. دُرْنَا حول جدجودة، أنا ونمير وأخته نميرة التي تعالج الجنود الجرحى. قرأ نمير القرآن، وجدجودة تبتسم ثم تصيح من الألم، وتُبعدنا بأصبعها كالذّباب. لم تكن تعرف أنها تمثّل دور الشجرة التي ربطنا فيها أسرى الحرب.

جاءت نميرة الغبيّة، وكرفوس، وشبشوب، وكلّ الفسفس الآخر. صاح أبي فنجوتَ أنتَ وإصبع الحنّاء، من الشبكة. كانت الشبكة فوق الأشجار ونمير لم يصل إليكما بعد، ليخبركما بالسرّ. وعندما عاد كانت جدجودة فوق الشجرة، تراقب كلّ شيء، مع أنها مريضة بالروزاتيزم. فكيف تسلّقت الشجرة؟»

نسينا المدرسة!

آه! نسينا المدرسة! يجب أن نتذكّرها ولا ننساها. فالمدرسة مهمة جدّاً حتى في الحكاية. وهي مثل الخدمة العسكرية بالنسبة إلى الجندي، تضمن الدفاع عن الوطن، كما تهيّىء تربية الطفل كما يريد الوطن.

ـ ما هذه المدرسة التي أذهب إليها وحدي؟ تساءل آسر أمام ماما.

أجابته ماما:

ـ الكبار قرأوا وتعلّموا لذلك لا يذهبون إلى المدرسة.

ـ لكنَّ جدتي لم تتعلم، ومع ذلك لا تأتي معي إلى المدرسة قال آسر.

وأمام المعلّمة، قرّر آسر أن يسكت حتى لا يسمع صوته يدّوي وحده وهو يتكلّم.

غير أنه اعتاد الذهاب إلى المدرسة أو العودة منها مثل غيره من الأطفال: أكتافهم مشدودة إلى الوراء، وصدورهم بارزة إلى الأمام من كثرة الكتب، بينما العلم وراءهم، في الحقائب، أي عند الذين كبروا قبلهم، كما قال له بوشويشة.

بُوقْرِلُّو وأولاده

ازدادت المشاكل بين آسر ونمير، بسبب المدرسة.

تكلّمت المعلّمة فوضع نمير أصابع يديه أمام عينيه واختبأ وراءها، ثم همس في أُذن آسر: «خزانة المعلّمة ملأى بالفيران!»

وفي طريق العودة من المدرسة صار نمير يلهث ويتكلم عن بُوقرِلُّو والأفكار:

ـ «تبدأ الأفكار من الرِّجْلَيْن وتذهب إلى المدرسة. آنذاك تدّب مثل بُوقرِلُّو قريباً من الأرض. يبيض الإنسان الأفكار وتكون خفيفة كالغبار فتتعلّق بساقيه، ثم ببطنه، مثل أولاد بُوقرِلُّو الكبير. تنتقل من بطنه إلى رأسه ومن رأسه إلى عينيه. وعندما يحكّها تعود إليه من جديد. عندما تكبر الأفكار يموت

نصفها، ويغادر نصفها الذي لم يمت بطن بوقرلّو الكبير. فتكتسب عاداته، ويصير لها أولاد ينتقلون من رجليها، إلى بطنها، إلى رأسها، إلى عينيها. ثم يموت نصفها كمامات أولاد بوقرلّو الكبير، ويغادر نصفُها بطنَ بوقرلّو الكبير...»

وصل آسر إلى البيت فسكت نمير.

أيام الأسبوع

جاء الليل يأكل آسر فصار ينتظر يوم الأحد لأن لونه برتقالي. تمدّد قرب جدجودة لينام.

يوم الاثنين: حبل.

يوم الثلاثاء: حنش.

يوم الأربعاء: سطل.

يوم الخميس: يبقى في الطابق.

يوم الجمعة: سمين.

يوم السبت: ضعيف.

يوم الأحد برتقالة لا تذهب إلى المدرسة.

فتحت جدجودة عيناً واحدة، وابتلعت آسر، ثم عادت إلى النّوم.

بوشويشة يُذَكّر آسر بالطُّرُق الأربع

جاء بوشويشة يوم الأحد، بعد غياب طويل، وطلب من آسر أن يجيبه عن الطّرق الأربع مرة أخرى:

ـ أما زلتَ تتذكّر الطّرق الثلاث، ورابعتها أنتَ؟

ـ مازلتَ فيها، قال بوشويشة، فما هي الطريق الأولى إلى مملكة الأخيضر؟

ـ أنْ أتخيَّلها أجاب آسر بسرعة.

ـ فهل تخيَّلتَها؟ سأله بوشويشة.

ـ نعم، أجاب آسر، فيها حرس أخضر.

ـ مازلتَ لم تتخيّلها، قال بوشويشة، مازلتَ أمام الأبواب ؛فما هي الطريق الثالثة؟

ـ أنْ أنتظرها، أجاب آسر.

ـ فهل مازلتَ تنتظرها؟ سأله بوشويشة.

ـ نعم، أجاب آسر، دائماً أنتظرها!

ـ كيف تنتظرها، وأنت لم تتخيل إلا أبوابها، وقليلاً من الإوزّ؟ قال بوشويشة محتجّاً، وأضاف: وما هي الطريق الثالثة؟

ـ أنْ أذهبَ إليها! قال آسر.

ـ وهل يذهب الإنسان إلى مملكة لم يتخيّلها، ولم ينتظرها؟ قال بوشويشة.

وقبل أن يختفي من النافذة قال:

ـ أنت مازلت في الطريق الرابعة يا صديقي! إلى اللّقاء، سوف أعود إليك!

خاتمة الطريق الأولى

حار آسر حَيْرَةً.

فهو عندما ينتظر يتخيّل. وعندما يتخيل يزداد انتظاره.

فكيف توجد طريق للتخيّل، وأخرى للانتظار؟

هذه أسئلة ينبغي طرحها على بوشويشة!

عاد آسر إلى فكرته غاضباً:

أَيَكُون بوشويشة هو الذي ينتظرني، أم أنا الذي أنتظره؟ أَيَكُون ريحان، خادم مملكة الأخيضر، هو الذي ينتظرني، أم أنا الذي أنتظره؟ ولماذا لا يتخيّلني الملك الأُخَيْضر نفسه، فيراني أنتظره، ويرسل بخادمه ريحان.

التفت آسر إلى نمير وقال له:

ـ الأفكار لا تموت بل تذهب عند شخص آخر يَرَانَا بها، فلا يزاداد قلقه وانتظاره.

ـ عليك أن تغيَّر فكرتَك، قال نمير، مملكة الأخَيْضر ليس فيها ماء وإوزّ فقط!

ـ فيها حرس أخضر أيضاً، قال آسر.

ـ هذا لا يكفي، قال نمير، لابدّ أن مملكة الأخيضر فيها كلّ شيء، كلّ شيء...

أسرار أخرى عن القط الأسود

بنَقَراته المعروفة (ثلاث بطيئات وثلاث سريعات) أطلّ بوشويشة من النافذة وسأل آسر أسئلة محيّرة:

ـ إذا كنتَ تنتعل حذاءك، وأنت تحدّثني، هل تحدّثني عن حذائك؟

ـ لا

ـ وإذا ضاع حذاؤك؟

ـ أحدّثك عن حذائي وأقول لك ضاع حذائي.

ـ أرأيت أنّ الكلام كلّه بَدَلٌ من ضائع! ألم تجد القطّ الأسود بعد؟

ـ إنه يهرب دائماً.

ـ بل هو في كلّ مكان! ألم أخبرك بأنه يتحرّك في الجغرافيا؟

ـ وأين ينام؟

ـ يتردّد هذه الأيام على دهليز يخزّنون فيه الفحم.

ـ دهليز؟

ـ نعم، قبو، أو كهف، أو مخزن للفحم.

ـ أين؟

ـ لا أستطيع أن أدلّك عليه. كَفَى!

ـ لماذا تقول: كَفَى؟

ـ لأننا بدأنا نلغي دور المصادفة!

حِيَل وألعاب

تعلّم آسر حيَلاً شيطانيّة جديدة مع أصدقائه: وئام، وأسامة، وعلاء، وشبشوب.

قال أسامة:

ـ نفرك الدرج بالشمع لنراهم يتزحلقون.

ـ نلفّ كرة من الورق والخرق، ونضع داخلها حجراً كبيراً، قال شبشوب.

ـ عندما أمرض يشترون لي كلّ شيء، قال علاء.

سكت آسر ثم أتى بفكرته:

ـ عندما تصيح أمّك، وَاصِلْ ما نَهَتْكَ عنه حتّى يزداد صياحها في المرة القادمة؛ فلا تضربك، بل تقوّي في صياحها، كلّ مرّة.

قالت وئام:

ـ أنا أرفض الأكل عندما يكون هناك أكل، وأطالب بالأكل عندما لا يوجد أكل.

بدأ قَلْبُ آسر يدقّ ويحرّك أزرار القميص. ثم قال لوئام:

ـ عندما أراكِ تذهب عيناي إليك!

وئام أهدته حمّالة مفاتيح ليس فيها مفتاح واحد.

حصان صغير

قبل الذهاب إلى المدرسة جاء آسر إلى أمّه باكياً، لأن باب المطبخ ضربه. وعندما بدأتْ ماما تطيّب خاطره وتسكته، سألها:

ـ أصحيح أنكِ مثل جدجودة تشتكين كثيراً؟

ـ ومَنْ قال لك ذلك؟ سألتّه ماما.

ـ باب يقول إنك تحسبين أن أيامك السوداء لم تبدأ إلا معه، وكأنّ كلّ ما سبق كان أفضل...

ـ هو الذي قال لك ذلك؟

ـ لم يقله لي، بل لكِ أنتِ!

ـ متى؟

ـ البارحة عندما تخاصَمْتُمَا!

ـ لاتعدْ إلى التنصّت، سمعتَ؟ ولا تَحْكِ مثل هذا الكلام لأحد!

بعد ذلك خرج آسر إلى المدرسة قائلاً:

ـ آي! أنا حصان صغير ومحفظتي ثقيلة!

ـ يجب أن تسبق الجميع، قالت ماما، هيّا أسرعْ قبل أن يفوتك الوقت!

اسْتَنِّيتَكْ يابوشويشةْ
ياراكبْ ع العلّوشةْ
والعلّوشةْ جيعانَهْ
والخبزْ اتْحرقَتْ في الكُوشَهْ

ثلاثة أهلَّة صغيرة حمراء على جبين آسر

أمس، هرب آسر بورقة الامتحان حتى لا تراها المعلّمة. فقال له نمير:

ـ وجدتُ فكرة! قلْ لأمك إن الحافلة قد مرّت على رجلك.

ارتعبتْ ماما وكشفت عن ساقيْ آسر:

ـ أين صَدَمَتْكَ الحافلة؟ أين؟

ـ هنا، قال آسر، وأشار إلى حبّة صغيرة بيضاء في قصبة ساقه.

أما اليوم فقد ذهب آسر إلى المدرسة وهو حَجَر. قال: أنا حجر. وذهب إلى المدرسة، ثم عاد إلى البيت مريضاً. ولم تفهم مَامَا مِنْ أيّ مرض يشكو. كان يستلقي على فراشه ولا ينام. وعندما يتألم يقول «بطني» ثم ينسى بطنه ويقول «رأسي» أو «ركبتي».

وفي الليل استيقظ مرتعباً بعد أن قتل جنوداً كثيرين، لكنْ، فجأة، طلعت عليه المعلّمة في بدلة عسكرية ورأسها رأس قط أسود.

نسي آسر حلمه عندما قام في الصباح. وذهب إلى المدرسة. لكنّه عاد منها بثلاثة أهلّة صغيرة حمراء على جبينه. عندئذ رافقه بابا إلى المدرسة وطلب مقابلة المعلّمة.

صاحت المعلّمة بعد ذلك:

ـ كذّاب! كذّاب! كذّاب!

سكت الأطفال كلّهم ونظروا إلى آسر.

جدجودة تتنكّر

صارت جدجودة تنام في النّهار وتشكو من قلّة النوم في الليل. تصيح كثيراً من آلام «الرُّومَازِيتم» فتصيح ماما معها.

تصيح جدجودة وتضرب بيديها على ركبتيها.

نبتت لها كرات كبيرة في عنقها وتحت إبطيها وفي قدميها.

أمسكت بيد آسر وأدخلتْها إلى تلك الحبوب الكبيرة قائلة:

ـ انظرْ ماذا طلع لي!

سحب آسر يده من جُحْرٍ فيه بُوقْرِلُّو كبير.

وتنكّرت جدجودة في هيئة غولة:

وضعت حبة طماطم في فمها فصار أحمر. وفَرَكَتْ وجهها بالبّن فصار أسود. وقلبتْ جفنيْها بأصابعها وتركتهما مقلوبتيْن.

لم يخفْ آسر.

عرف أنها هي.

لكنْه أحس بأنّه ليس هو.

معركة بين القط الأسود وقط آخر أبيض

قال علاء:

ـ وقعت معركة أخرى بين القط الأسود وقط آخر أبيض، في سوق السمك!

ـ من الذي تغلّب على الآخر؟ سأله آسر.

ـ لم تبدأ المعركة حقّاً، قال علاء مفتخراً، كلّ ما هنالك أن القط الأبيض صار يموء ويصيح حتى بحَّ صوته وغاب.

ـ وهل هرب؟ سأله آسر.

ـ كلاَّ، امتصّه القط الأسود.

ـ بَلَعَهُ؟

ـ لا، امتصّه، شربه كما يشرب الليل النهار.

ـ هل تكذب عليَّ؟

ـ أنا لا أكذب عليك. أنا أحبك يا آسر. تعرف أنّ أعزّ أصدقائي هما اثنان فقط!

ـ من؟

ـ أنتَ والمكرونة!

ـ أنا أيضاً أحبّ المكرونة، قال آسر.

ـ... والقط الأبيض هو نفسه القط الأسود يسري في الليل بعيني النهار، ويمشي في النهار بلون الليل.

ـ لماذا يفعل ذلك؟ سأله آسر.

ـ لا يريد أَنْ ينسى نفسه في النوم فيصطاده الأعداء.

آسر يودّع صديقه علاء

سافر علاء إلى جزيرة جِرْبَة.

جاءت الشاحنة الكبيرة وحملت أثاث البيت كلّه. وقف آسر على شرفة البيت ليودّع علاء.

انطلقت الشاحنة فصاح علاء:

ـ آسر! آسر! آسر!

ثم انعطفت السيارة خلف زاوية الجدار العالي.

ركض آسر إلى غرفته باكياً. ثم طلب أن يشرب الحليب من «البيبرونة»

دخَلْنَا في الحكاية

وريحان ماجاناشْ

مازلنا في البداية

وم البابْ مادخلناش

رسالة إلى بوشويشة

«أين أنت الآن يا بوشويشة يا صديقتي؟»

ـ الحمد للّه! انتهينا من إجراءات البيع والشراء! قال بابا.

ـ أخيراً! قالت ماما.

ـ ماذا اشتريتَ لي يا بابا؟ قال آسر.

ـ اشترينا بيتاً جديداً، أحسن من هذه الشقّة... «فيللا» تستطيع أن تلعب فيها كما تريد! قال بابا.

خاف آسر وقال:

ـ لكنْ، إذا غيّرنا البيت يجب أن نغير كلّ شيء ونولد من جديد!

«عزيزي بوشويشة:

أنا الآن في المحيط الهادىء.

رَحَلْنَا من هذه الشقة، ولن نعود إليها أبداً. نسكن الآن في فيللا على شاطىء رَوَّاد، شارع المحيط الهادي، رقم 16.

وضعتُ لك هذه الورقة على الشباك حتّى تعرف العنوان وتزورني هناك».

«آسر»

وينك يا بوشويشة؟ وينك يا ريحان؟

سيأتي ريحان ويدقّ الطبل: بُمْ! بُمْ! بُمْ!

هل جاءت الساحرة ومسختْك في جلد قط أسود؟

وينكْ يا ريحانْ

يا أخضرْ كالبستانْ

نضربْ لكْ ع البنديرْ

بوشويشةْ طاح في البيرْ

بوشويشة يرى الفخّ ويهرب من الصياد. يعرف حيل الإنسان. وأنت ياريحان؟ ماذا تقول؟ هل أنت غير موجود؟ أنا أحلم. أينما ذهبتَ تقول أنا أحلم. أينما ذهبتَ تقول آسر غير موجود. وينك يا بوشويشة؟ وينك يا ريحانْ؟

كيف أصير ملكاً؟

مرّت الطائرة فوق رأس آسر ثم ذهبتْ إلى البحر:

هيَّا يا بوشويشةْ

يا راكب في الطيارةْ

زمّرتْ لكْ عويشّةْ

ما سَمَعْتش الزمّارةْ

هل قرأت الورقة التي تركتُها لك على الشباك؟ الآن تعرف العنوان. المحيط الهادىء طويل وهو أمام البحر. لكنّه غير معبَّد. فيه حفر كثيرة. فارغ في الشتاء. وفي الصيف يمتلىء بالموسيقى والمثلّجات. عندي رمح للقط الأسود حتّى لا يقفز إلى النافذة ويمزّق الرسالة. وأنا كيف أصير ملكاً؟

الملك الأُخَيْضَر قطع يده: «آيْ»

الملك الأُخَيْضَر قطع رجله: «آيْ آيْ»

الملك الأُخَيْضَر قطع أذنه: «آي آي آي»

الملك الأُخَيْضَر قطع أنفه «آي آي آي آي»

سأله ريحان: «لماذا يا مولاي؟»

الملك الأُخَيْضَر قطع لسانه ثم سكت.

«افتحْ يا حارس!» أو نهاية الطريق الثانية

دَبَّ بوقرلّو على الأرض كأنه يحرثها. وفي بطنه الأسود المصفّح حشراتٌ أصغر من القمل، تجري في كلّ الاتجاهات ولا تسقط.

قالت أنثى البوقرلّو: «أين أولادي؟» فتكلّم الضوء وحده: «صباح الخير يا آسر! لا نمير يأتي، ولا نميرة!»

وفي حقل البطيخ، بطيخة تبكي. كلاَّ، هذه ليست بطيخة. جاء حارس أخضر وسأل صديقه: «هل سمعتَ صوت رضيع يبكي؟» أجابه زميله ضاحكاً: «ها ها ها... رضيع بين البطيخ والفقّوس؟»

ارتبك الحارس الأخضر وظلّ يسير مع زميله وهو يشعر بقليل من الخجل، وبقليل من النّدم: «آه، لو كنتُ وحدي! لو كنت وحدي لَمَا خجلتُ! لو كنت وحدي لما تردَّدتُ! آه لو كنت وحدي لسألتُ الرّيح: هل هو صوت رضيع يبكي؟»

دقْ...

دقْ...

دقْ...

افتحْ يا حارس!

لا...

لا...

لا...

الباب مسكّر... الدّنيا مسكّرة... امشِ!

دق...

دق...

دق...

افتحْ يا حارسَ الأسوار... يا أخضر... يا خضّارْ

لا... يا مسمارْ... يا فارْ... يا حفّارْ

افتح يا ثرثارْ... يا سحّارْ... يا دينارْ

لا يا نجّارْ... يا منشارْ... يا مزمارْ

افتحْ يا حمارْ... يا نكّارْ... يا حمّال الهمْ

لا يا جارْ... إذا فتحت الدّارْ... آكلك كالنّوارْ... عَمْ! عمْ! عَمْ!

في الطّريق إلى المملكة

حركة جديدة في بيت جديد

تذوّق آسر طَعْمَ الفرح بمذاقه السكّريّ السائل، في البيت الجديد؛ فيللا المحيط الهادىء: «كأنّنا ولدنا من جديد في بيت جديد، قال، إلاّ... جدّتي!»

حاولت جدجودة أن تستعيد صلتها بالأرض وتزرع تربة الحديقة، غير أن آلامها جعلتها تكتفي بالاقتراحات والأوامر، وذلك بين آهةٍ على عتبة البيت، ونوْبَةِ أَلَمٍ وَسَطَ أحواض الحديقة: «هنا بَصَل! هنا بطاطا! ازْرَعُوا شجرة ليمون! لماذا الزّهور؟ هنا طابونة للخبز! هاتوا شويّة دجاج عربي... وبقرة!»

طلبت جدجودة بقرةً حلوباً لتخفّف على بَابَا مصاريف الحليب. أمّا مَامَا فقد خفّت شكواها من الإنزواء بين جدران الشقة في الطابق الرابع، وانصرفتْ فعلاً إلى تنفيذ نصائح جدجودة... إلاّ البقرة الحلوب: «إيه! لا ينقصنا إلا بقرة! لماذا لا نأتي بمعزى أيضاً؟» قالتْ ساخرة وهي تقلّب قطع اللحم على المشواة الجديدة التي هيّأها بَابَا في زاوية الحديقة.

تَخْرُجُ بنا مَامَا إلى الشاطىء، وعندما نعود، تقول: «إيه! على الأقل صار لنا الآن ما يسلّينا بين الحديقة والبحر!»

وفرح بابا لأن ماما فرحت، ولم تعد تقول: «أبحث بين طيّات الثياب البالية عن فرح نسيتْه امرأة ألمانية.»

صار دكّانه بعيداً عن بيتنا الجديد. لذلك قال: «سوف أشتريها بنت الكلب! كما كان يقول صديقي عمر» ولمّا سألتْه ماما: «تشتري ماذا؟» أجاب: «السيّارة طبعاً! حتى تكتمل فرحتنا، ولا أجد مشقّة في

الذهاب إلى عملي» فَرِحْنا كلّنا بالسيارة التي سيشتريها بابا لكنّ ماما قالت: «انتظرْ حتّى نتخلّص من ديوننا، ومن أقساط البيت!» فأجّلتْ فرحتنا. غير أنها لم تعد تقول أيضاً: «أدور مع مكنستي في أرجاءِ بيتٍ ليس لي...»

أمّا آسر فقد بدأ يتحدّث عن أهمية الجغرافيا...

منقِّب العينين

كلُّ ما هو جديد يبقى ناتئاً مثل مسمار في حائط...

هكذا قال آسر في نفسه وهو يعود من المدرسة الجديدة في المحيط الهادىء. لم يجد أحداً يعرفه في ساحة المدرسة، فوقف تحت شجرة، مثل شجرة أخرى، صغيرة. اقترب منه طفلُ غائرُ العينين، كان الأطفال ينادونه «يا منقّب العينين تعال! يا منقّب العينين اذهبْ!» وسأله:

ـ ما اسمك أنتَ تحت الشجرة؟

ـ اسمي آسر الطرودي.

ـ هل تحبّ العصافير؟

ـ نعم، أجاب آسر كنت أربّي الحمام في قفص.

ـ الحمام في قفص؟ لكن الحمام لا يُربّى في قفص! أنا عندي أقفاص كثيرة، ستّة أقفاص...

ـ ماذا تربّي فيها؟ سأله آسر.

ـ أربّي الحسّون والكناري، أجاب منقّب العينين، لكنني أكره القطط! سكت منقّب العينين قليلاً، وبعد أن تأمّل آسر، سأله وكأنه تذكّر شيئاً:

ـ أنت جديد، أليس كذلك؟ هل أعجبتك هذه المدرسة؟

ـ فيها طين أكثر وضرب أقلّ، أجاب آسر.

ـ هذا ليس صحيحاً. قال منقّب العينين، معلّمتُنا جاءت غاضبة من بيتها فهجمتْ عليَّ وخنقَتْني...

ـ لماذا؟ سأله آسر.

ـ لأنني أتيتُ بفأر في كيس سكّر، وأطلقْتُه في قاعة الدرس.

ـ ولماذا فعلتَ ذلك؟

ـ أعرف أنها تخاف من الفأر. النساء كلّهن يَخَفْنَ من الفأر. هل تعرف لماذا؟

ـ ...؟

ـ هل تعرف لماذا؟ سأَلْتُك؛ هل تعرف لماذا؟

ـ لا...

عندئذ همس منقّب العينين بكلمات غير مسموعة في أذن آسر فابتسم آسر واحمرَّ خدّاه.

ثلاثة **جلود** وَبَريَّة صغيرة

رأى آسر قطة تهرب بأولادها باحثة عن مكان آمن، فقال: لا شك أنها خائفة من القط الأسود!»

صار آسر يعرف الآن أن القط السائب يهجم في الشتاء على القطط الصغيرة، المولودة حديثاً، فيمزّقها، ويلتهمها، تاركاً جلودها الوبريّة فارغة.

تُدَافِعُ الأم بشراسة عن أبنائها. لكنها عندما تغيب باحثة عن الأكل، يتشمم القط السائب رائحة الصغار فيتسلّل إلى مخبئهم. وإذا كانت الأم موجودة، أو جاءتْ بسرعة، لإحساس غريزيّ بالخطر يدقّ ويرنّ في رأسها «خطر! خطر! دِنْ! دِنْ!»، تهجم على العدوّ فتخمشه وتموء، ويخدشها ويموء، وتلطمه وتموء، ويلطمها ويهجم، ثم ينسحب هارباً من قدرة الأم على حماية صغارها.

تخاف القطط الصغيرة وتنام متراصَّة. تلتصق برائحة أمها فتجدها قد اختلطت برائحة القط المفترس. وتنام خائفة بينما صَوْتُ ذلك القطّ الجائع يمزّق طبقات الليل وكأنه يمزّق القماش الخشن الذي تُصنع منه ستائر المطر الخارجية على الشرفات.

تلعق الأم جراحها، ويساعدها صغارها أيضاً. لكنهم يخافون من تلك الرائحة الغريبة، رائحة ذلك القط الملعون؛ القط القاتل الذي لا يحبّ الصغار كما يحبّهم أهلهم، فيُبعدون رائحته بشوارب صغيرة تشبه أشعة الضوء، وينامون بقلوب تدق، تدق، تدق، حتى تنتهي الرائحة وتتلاشى من جسم الأم.

عندما وجد آسر ثلاثة جلود وبريّة صغيرة، في العلبة الكرتونية، قال، من دون أن يتأكّد من قوله: «هذا ما فعله القط الأسود، طبعاً! سوف يرى ما سيفعل به رمحي!»

هجوم القط الأسود (1)

لم يظهر القط الأسود في المحيط الهادىء حتى الآن. لعلّه يظهر في الليل فقط؟ أو ربّما يظهر في النهار أيضاً، لكنْ، في شكل قط أبيض، كما قال علاء، قبل سفره إلى جزيرة جربة.

مَنِ الذي افترس تلك القطط الثلاثة الصغيرة؟

لا شك أن منقّب العينين يعرف أسرار القطط، أكثر حتّى من علاء. فهل حدث مرّة أن ضبط قطّاً أسود يحاول مهاجمة أقفاصه؟

لذلك سأله آسر، موضّحًا أكثر:

ـ القط الأسود، ذلك القط الذي يكبر ظلّه على الجدران في الليل!

ـ نصف القطط سوداء، هنا! قال منقّب العينين.

في البداية، لمّا كان آسر يسكن في بنايات الورود العالية، وقبل انتقاله إلى الفيللا الجديدة في هذا الشارع الطويل الممتدّ مع شاطىء روّاد حاملاً اسم المحيط الهادىء، جاء القط الأسود إلى ساحة الورود لأنّه سمع بأن خرفان العيد ستذبح صباحاً.

وها هي ذي القصة كما رواها آسر إلى منقّب العينين:

«وزعت نقابة الورود أكياساً بلاستيكية سوداء، حتّى على الشقق التي لا تنوي ذبح خروف.

«وفي الليل دسّت النّقابة تحت الأبواب إعلاناً مهمّاً عن العيد:

نقابة إقامة الورود

شارع محمد صالح بالحاج

2080 أريانة

إعلان

بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك، أعاده الله عليكم باليمن والبركة، تتوجّه إليكم النّقابة بأحرّ التّهاني وكلّ عام وأنتم بخير.

وبهذه المناسبة، نرجو من كافة المتساكنين أن يقوموا بعمليّة الذبح خارج العمارات وذلك تفادياً لسَدّ قنوات تصريف المياه، فنحافظ بذلك على صحّة الجميع ونتجنّب فيضانات قنوات المياه المستعملة التي حدثت في بعض العمارات في السنوات الفارطة.

والنقابة ستضع على ذمّتكم أكياساً للفضلات كما ستجهّز أماكن مخصّصة للذّبح ولتنظيف الخرفان كما ترجو منكم عدم غسل الجلود في الشرفات.

والسلام

رئيس النقابة

الطيب معيزة

SYNDIC RESIDENCE
L E S ROSES
Av. Med Salah Belhadj
2080 ARIANA

هجوم القط الأسود (2)

بعد توزيع الأكياس ودسّ الاعلانات تحت الأبواب، نشبت صباح العيد معركة ضارية لا تنقصها الأمعاء والدماء، وأُعلنت حالة الحصار العام في الساحة.

شمّ القط الأسود رائحةَ الدم الذي لم يذهب إلى المجاري.

وبعد ذلك شمّ رائحة الشواء

شاهد الرائحة تنبعث من الشرفات وتحلّق متباطئة في سحابات صغيرة نحو السماء. ولأنّه لم يظفر بقطعة لحم واحدة، فقد قرّر الهجوم.

لكنه لم يهجم وحده:

جاء بصحبة ألف وخمسمائة قط وقطة من جميع الألوان والأحجام.

وقد أحصى شبشوب تلك القطط بينما تخاصم علاء مع وئام لأنّها كذَّبَتْ شبشوب وادّعتْ بأن عددها لا يتجاوز عشرين أو سبعين قطة فقط.

هجمت القطط، بقيادة القط الأسود، على أكياس البلاستيك السوداء، وبقرت بطونها، ومزّقت أحشاءها، وقفزت في الهواء مثل النوابض لتقتنص رائحة المشوي المتموّجة من أعالي الشرفات، بينما شبشوب يعدُّها هنا، ويعود إلى عدّها هناك، ناسياً أنها تغيّر أمكنتها باستمرار، وبسرعة الدّم والبرق.

مزّقت القطط بموائها الأسماع، وجعلت بلّور الشرفات وزجاج السيارات يهتزّ في إطاراته، والغبار يتطاير في الساحة، والآذان تُوَزْوِز، وشَعْر الرأس ينتصب، والأطفال يبردون ويسخنون، ثم يرفسون ويرتجفون، ثم ينزلون من السّلالم صائحين، زاعقين.

اختلط الأطفال والقطط والأكياس والسيارات والغبار ورائحة المشوي والزعيق والمواء...

جُرِحَ مروان، وبكتْ وئام، وتدحرجت ضحى على درابزين السلّم...

اختبأ وسيم في حفرة المجاري تشبُّهاً بسلاحف النّينجا... وقال علاء: «أنا غير موجود، أنا أكلك الذئب مثل عمّي علي...» وتشبث إلياس بالعجلة الخامسة لسيارة اللاندروفر الرمادية. وسقط آسر مع رمحه في حاوية الفضلات التابعة للبلديّة.

هجوم القط الأسود (3)

لم تتوقف المعركة إلاّ بعد تدخّل الآباء بالعصيّ وسكاكين الخرفان ومقابض رفع السيّارات، وهجوم الأمّهات بالمكانس والشوّايات وملاقط الفحم، حتى باتت المعركة غير متكافئة.

ولاَمَ السكّان نقابة الورود، فردّت بالقول إن الذنب ليس ذنبها.

وكانت الخسائر قتيلاً واحداً، وعدداً من الجرحى.

أما تفاصيل القائمة فهي كما يلي:

إلياس: خدْش عميق في يده، وآخر بسيط على أنفه.

وئام: اصفّر وجهها وفقدت القدرة على الكلام.

شبشوب: أصيب بحالة غريبة جَعَلَتْه يعدّ القطط حتى في النّوم.

ألفة: ضاع صندلها.

شادي: فقد ما جمعه من نقود العيد.

روان: انكسرت لها سنّ واحدة.

وسيم: نسي المعركة ونام في حفرة المجاري ثلاث ساعات.

ضحى: التَوَتْ ساقها اليسرى.

مروان: جُرح بالسكين الذي استخدمه لضرب القطط.

كرفوس: يضحك ويبكي.

... وحدثت خسائر أخرى مثل الخدوش التي لحقت بالسيّارات، وكذلك ضياع رمح آسر!

أما المفقود الوحيد في هذه المعركة فكان أرنب أسامة.

لقد أخطأ أسامة وخرج مع أرنبه. وعندما رآها القط الأسود قال: «لَحْمُ أَرْنَبٍ أطيبُ من مصارين خروف!»

وردة واحدة في الغبار

ابتعدت الآن تلك الأيام الجميلة؛ أيام إقامة الورود. مع أنها إقامة لا تنبت فيها وردة واحدة وسط الغبار. والنقابة ترش الماء. ترش الماء على الغبار.

لعلّ وردة وحيدة وبعيدة بدأت تنمو فيها الآن. لعلّها في رأس آسر فقط:

«إيه يا أصدقائي!

لم أتعرف إلا على صديق واحد في المحيط الهادىء. وهو عدوّ لدود للقطط لأنّها تهدّد عصافيره حتى وهي داخل أقفاصها. اسمه منقّب العينين. هكذا صرختْ به الجارة عندما لاحَقَ قطّاً أبيض، من دون أن يعرف بأنه هو ذاته القط الأسود، الذي مدّ يده عبر قضبان القفص، ومزّق لحم الكناري. ركض وراءه وسدّد الحجر. لكنّه أصاب باب الجارة فخرجت إليه صائحة « يا منقّب العينين! سوف ترى يا منقّب العينين!» وخرج أولادها وراءها، يردّدون معها «يا منقّب العينين!» حتّى ردّدت المدرسة كلّها «يا منقّب العينين!» ثم نسي المحيط الهادىء اسم «الفرجاني» وصار يناديه باسم عينينه الخاليتين من الرموش.

قال منقّب العينين لآسر:

ـ حتّى القطّ الأسود، أستطيع إصابة جمجمته على بعد مائة متر. لا فائدة من تهديده بعصاك. دلّني عليه إذا رأيتَه، وسوف ترى!

آسر في الدكّان

وافق بابا على اصطحاب آسر إلى دكانه هذا اليوم، مادام في عطلة. لكنّه حَثّهُ كثيراً على الاهتمام بدروسه حتى لا يضطرّ إلى بيع الثياب المستعملة مثل أبيه عندما يكبر ولا ينجح في دراسته.

لماذا لا يحبّ بابا الثياب المستعملة؟

آسر يحبّ بابا ويحبّ مفاجآت الثياب المستعملة.

قال بابا جابر:

ـ أنا درست أكثر منك يا آسر، غير أنني لم أكمل دراستي حتى النهاية. كنتُ ذكيًّاً، ربّما أكثر ممّا يجب. فصرت أكبر من التعليم والمعلّمين. هل تعرف كيف يصير الطفل أكبر من التعليم؟

ـ كيف؟ سأله آسر مستغرباً.

ـ عندما يتصرّف مثل صاحبك منقّب العينين. ذلك الطفل بدأ يكبر قبل الأوان. ولن يكمل دراسته. لا أريدك أن تخالطه منذ اليوم. أنت أيضاً ستصير أكبر من الدراسة إذا صدّقتَ الجنّيّ الأسود الساكن في رأسك. أنا تعبت كثيراً في حياتي. تنقّلت بين مِهَنٍ كثيرة: بعت الدجاج، عملت نادلاً، حرست عمارات الآخرين وسيّاراتهم. لكنني استطعت أن أسكن في مثل تلك العمارات في النهاية. كلّ ذلك بفضل الروبافيكيا، وبمساعدة أمك التي تغسل وترتق وتكوي.. كانت تريد الغناء في البداية، ثم كَوَتْ آلاف الفساتين وهي تغنّي، وساعدتْني على انتقاء أفضل ما تريده النساء من أنواع الثياب المستعملة.

سكت بابا جابر قليلاً ثم أضاف:

ـ بعد ذل ناديتُ جدّتك حتّى لا تموت وحدها في قرية كاف الحجر.

ـ أريد أن أزور كاف الحجر، قال آسر متوسّلاً.

ـ لم يبق فيها إلا الحجر، أجاب بابا.

زرّ «المارينز»

خفّت الآن مفاجآت «الفريب» قال بابا. انتبه الجميع إلى مفاجآتها. كنتَ تجد دولاراً في الجيب الداهلي من سترة هذا الأميركي، أو خاتماً في معطق تلك الألمانية.

ـ لكنّ الألعاب جميلة! قال آسر.

ـ نعم، قال بابا، أطفالهم يملّون ألعابهم بسرعة. وكذلك هو شأن النساء مع ألبستهنّ، فيرسلن بها إلينا سريعاً قبل أن تتهرّأ.

أمّا الرجال فإنهم لا يغيّرون بدلاتهم وقمصانهم، وحتّى جواربهم، إلاّ بعد فوات الأوان.

ـ لماذا؟ سأله آسر.

ـ ربّما لأنهم لا يريدون زيارتنا مع ثيابهم داخل البالات!

ضحك آسر لهذه الفكرة ثم قال:

ـ أريد زرّاً جديداً يا بابا!

فتح بابا درج الطاولة التي يجلس إليها وتناول زرّاً:

ـ وجدت لك زرّاً جديداً، ليس لديك مثله في مجموعتك. لكنْ عليك أن تعدني بعدم إهمال دروسك.

ـ نعم، قال آسر.

ـ هذا زرّ «المارينز» أي البحرية الأميركية، قال بابا.

ـسوف أصير بحّاراً، قال آسر وهو يتأمل الزرّ.

وبعد أن وضعه في جيبه التفت إلى بابا وقال:

ـ هل تعرف يا بابا أن الثياب المستعملة تشبه الحكايات؟

ـ كيف ذلك؟ سأله بابا.

ـ تكون بعيدة ويكون أصحابها بعيدين. لكنّها تجتاز الجبال والبحار وتصل إلينا.

ـ نعم.

ـ وعندما تكون كبيرة قبلنا، لا تصل من رحلتها إلا بعد أن نكبر نحن!

ـ كيف؟

ـ انظرْ إلى هذا القميص، أليس صغيراً؟

ـ بلى، هو صغير، قال بابا، ويوافق قياسك تماماً.

ـ لكنّ صاحبه الأوّل كَبْر الآن في بلاده، أليس كذلك؟

ـ بلى...

ـ أما أنا فمازلت صغيراً. لذلك أستطيع أن ألبسه.

ـ نعم.

ـ عندما يكبر أصحاب الثياب يتخلّون عنها، لذلك تسافر عبر البحار، وتبحث عن أطفال آخرين، في بلدان أخرى، كي يلبسوها. وأنا أستطيع أن ألبس هذا القميص لأنه جاء فوجدني على قياسه...

ـ هو على قياس جيبك أيضاً، قال بابا.

ـ جيبي؟

ـ نعم... هو قميص مستعمل، ولذلك فهو أرخص ثمناً... هناك ثياب جديدة تكون أغلى سعراً.

ـ من أين تأتي الثياب الجديدة؟

ـ من القماش الجديد والمعمل الجديد.

أخيراً سكت آسر. تأمّل وجه بابا. لكنّه سرعان ما عاد إلى أسئلته:

ـ لماذا تغضب عندما أسألك عن عينك الزجاجية؟

ـ كنتُ صغيراً ووقعت على غصن شجرة.

ـ هذه حكاية جديدة، قال آسر.

ـ لماذا تجدها جديدة؟ سأله بابا.

ـ لأنك حكيت لي حكاية أخرى...

ـ وماهي؟

ـ قلتَ لي أن قرصاناً جاء من وراء البحار وخطف عينك بيده الخشبية ذات الخطّاف الحديدي!

ـ أنا الذي قلت ذلك؟

ـ نعم.

ـ لا أتذكر أنّني قلت لك مثل هذا الكلام.

ـ من الذي قاله إذاً؟

ربّما كان من خرافات جدّتك!

ـ وهل صحيح أنك كنتَ تعلّم أطفال القرية؟

ـ نعم.

ـ لماذا تركتَ التعليم؟

ـ لأن الأطفال كانوا يكبرون كلّ عام ويتركونني في المدرسة!

آسر يقوم بعمل خطير

كان آسر جالساً أمام الدكّان يأكل قطعة كاتو عندما مرّت تلك الشاحنة الصغيرة، الشاحنة الملعونة: شاحنة فحم! نعم، شاحنة فحم!

ستذهب إلى المخزن من دون شك! لكن، أين يوجد مخزن الفحم؟

ترك آسر بَابَا مشغولاً مع النساء داخل الدكان، وركض وراء الشاحنة. كانت تشق طريقها ببطء عبر شوارع السوق، وبعض الأطفال يتشبثون بها من الخلف ثم يتركونها عندما تنعطف في اتجاه غير اتجاههم.

قفز آسر وتشبث بمؤخرة الشاحنة حتى أحس بأنها بدأت تتوقف. واصل طريقه بمفرده إلى زاوية الشارع وبدأ يراقبها. نزل السائق السمين أمام دكان بائع الفحم ثم دخل. ظل آسر يراقب الحركة داخل الدكان المعتم. لكنه لم يرَ القط الأسود. لا يمكن أن يسكن القط الأسود في دكان صغير كثير الحركة والضّجيج...

خرج السائق ومعه صاحب الدكان الذي ساعده في نقل أكياس من الفحم إلى صندوق الشاحنة. عاد البائع إلى دكانه ثم انطلقت الشاحنة.

تمسك بها آسر مرّة أخرى، فأسرعتْ هذه المرة.

فكّر آسر أن يلقي بنفسه ولا يعود إلى هذا العمل الخطير.

لقد تجاوزت الشاحنة ما يعرقلها في الشوارع الضيّقة، المزدحمة بالمشاة والعربات، وزادت من سرعتها. لكن الأمر الملفت للانتباه أنّها سلكت شوارع جانبيّة ولم تذهب إلى حيث يمكن أن يصفّر الشرطي منتبهاً إلى آسر وهو يتعلّق بالشاحنة من الخلف!

سرداب الفحم المُؤقَّت

أخيراً، ها هوذا مخزن الفحم!

إنه في أحد بساتين «سُكَّرَة»!

اختبأ آسر وراء جذع شجرة تين كبيرة. رأى الرجل السمين يُنزل أكياس الفحم من السيارة، ثم ينقلها إلى قَبْوِ بيتٍ لم يكتمل بناؤه بعد.

طال عمل الرّجل حتى بَدَا عليه أنه لن يعود إلى السوق بسرعة. بل لاحظ آسر أنه كان يهمس ويراقب أطراف البستان.

تسلّق آسر شجرة مشمش وبدأ يلتهم ثمارها. وكلّما التهم حبّة مشمش احتفظ بالنواة في جيبه حتى يكون حذراً كما يجب.

كان خطأ آسر أنّه صعد إلى أعلى الشجرة حيث تتباعد الأغصان وتعرقل نزوله السريع. فلم يتمكن من الالتحاق بالشاحنة عندما اشتغل محرّكها وانطلقت مهتزّة بين حُفَر البستان.

فجأة دوّى صوت كأنه يأتي من كهف:

ـ انتظرتُك طويلاً، كان لابدّ أن أراك وحدك!

خاف آسر ولم يستطع تحديد مصدر الصوّت. ذلك الصوت المتدفّق في أذنيه من كهف لا يراه.

ـ انتظرتُك طويلاً! كرّر الصوت.

ماذا حدث بعد ذلك؟

آسر لا يعرف. لكنه رأى أشعة ضوئية ونجوماً راقصة وعينين صفراوين، برتقاليتين، خضراوين، زرقاوين، مع ألوان أخرى لا يستطيع أن يسمّيها...

ـ هذا اللون فوسفوري! قال الصوت.

لم يدرك آسر أين هو...

ـ أنتَ في سرداب الفحم المُؤقَّت! قالت العين الفوسفورية.

احذرْ لسانك!

لم يفهم آسر كيف نزل إلى قبو الفحم. يتذكّر أنه كان قرب شجرة المشمش...

ـ امتَصَصْتُك إلى الظلام لتعرف نفسك! قالت العين الفوسفورية.

أحسّ آسر بقلبه يقفز:

ـ قلْ لقلبك أن لا يقفز في صدرك! قالت العين الفوسفورية.

خيم الصّمت في السرداب. كلّ شيء صامت...

ـ هذا ليس صمتاً، أُذنك لا تسمع مثلنا! قالت العين الفوسفورية.

كلّ شيء أسود أمام عيني آسر...

ـ الأسود امتصّ ألوانك، وعيناك لا تريان مثلنا! قالت العين.

في الشُّعَيْرات الدقيقة، داخل أنف آسر، رائحة فلفل حار:

ـ هذه ليست رائحة فلفل حار، أنفك لا يشمّ مثلنا! قالت العين.

أراد آسر أن يتقّدم ليستند إلى جدار أو يبحث عن مخرج، عن باب، عن شباك، عن أي شيء... مدّ يديه في الظلام...

ـ ليستْ لك عينان في أطراف أصابعك حتّى تتقدّم مثلنا في الظلام!

أحسّ آسر بأمعائه تتمزّق من الخوف والجوع. أحسّ بمرارة تحت لسانه. كان لسانه مرّاً، جافّاً، يريد ماءاً...

ـ قد تختلط عليك السوائل في هذه اللّون الدّاكن الذي يمتصّك! قالت العين الفوسفورية، اِحذرْ لسانكَ لأنه قد لا يفرّق بين مرارة الخوف ومرارة السمّ، انتظرْ حتّى تعرف نفسك وتفهم ما يريد لسانك!

أصابع ترى!

تلاشت العين الفوسفورية من السرداب.

عمَّ الظلام، فلم يبقَ حتى ذلك البصيص الناطق.

ياماااااا ماااااا....

يا باااااا باااااا...

الليل يوجعني...ني...ني...ني...

عيني توجعني...ني...ني...ني...

أنا وحدي ...دي...دي...دي...

الليل يأكلني ...ني...ني...ني...

ثم لم يعد آسر يرى أنه يرى. لا شيء ليسمّيه. لن يقرأ شيئاً. عينه لا تأتي بشيء يجده وجهُه، أو لسانُه.

لذلك خرجتْ عيناه تبحثان عنه.

ساعَدَتْه يدُه.

أخذتْ تمسّه.

عيناه الآن في يده، في أنامله.

لمس آسر عينيه، أنفَه، أذنَه، لسانَه.

مسَّ يده الثانية.

ارتطمت عينه بعينه:

رأى ألواناً تتموّج، تتموّج، تشقّ الظلمة: زرقاء، بنفسجية، وردّية...

عثرت أنامله على عينيه.

كلام بالألوان

صار آسر يلمس فيرى الأشياء.

لكنّه لم يعد يسمع شيئاً.

يرى صور الأشياء: أكياس الفحم صامتة، الجدران صامتة، الدنيا كلها صامتة، خارج السرداب.

راقب كلّ شيء. حدّق. غمس أذنيه. عثر بكرسي قديم فلم يسمع صوت ارتطامه بالأرض. دقّ على الباب فلم يسمع صدى دقّاته. دقّ على الجدار فلم يسمع... لماذا يدقّ إذاً؟

تنقّلتْ عيناه في كلّ الاتجاهات. لكنّ أُذنه لم تجمع شيئاً. لم تميّز صوتاً واحداً. كأنّما الأشياء كلّها حاضرة. تتفرّج عليه وهو ينظر إليها، فتنظر إليه يحرّكها، فتهرب منه إلى صمتها.

رأى أشياء بعيدة تقبل إليه. تتفرّج عليه، هي أيضاً. رأى بوقرلّو يزحف في العتمة بألوان لم تعد تقتصر على لونه الأسود الأبديّ.

شمَّ رائحة بوقرلّو. للنّمل رائحة أيضاً: رائحة هذه النملة تختلف عن تلك ، لأنّها تجرّ زاداً لا تجرّه تلك .

ما أكثر الرّوائح في هذا السرداب.

كأنها ألوان.

كأنها أصوات.

رائحة حامضة، رائحة مرة، رائحة حلوة، رائحة مالحة، رائحة تتكلّم...

رائحة السرداب باردة.

آسر له رائحة دافئة.

بدأت تسخن وتسخن... تتكلم بالألوان:

سمع صوت نملة.

كل شيء يتكلّم

آسر يرتجف الآن:

ذهب إلى هناك فهجمت الألوان على السرداب وقالت: «هذا آسر!»

عاد إلى هنا فهجمت الروائح على السرداب وقالت: «هذا آسر!»

ركض إلى هناك فهجمت الأصوات على السرداب وقالت: «هذا آسر!»

التَفَتَ إلى هنا فهجمت الطّعوم والمذاقات على السرداب وقالت: «هذا آسر!»

وقف هنا فهجمت الملامس من كل اتجاه وقالت: «هذا آسر!»

عيون أخرى تراه وتتفرّس. أنوف تشمّه وتستنشق. آذان تسمعه وتنصت. ألْسِنَة تلحسه وتتذوّق. أيادٍ كثيرة تمسّه وتجسّ.

حتى الهواء...

حتى ذريرات الضوء والغبار...

ثم أضاءت الدّنيا يا ماما!

وقال كلّ شيء على لساني:

«أنا آسر!»

أضواء وألوان ثم كُرَة تنشقّ

اخترق النّورُ جسمَ آسر، فانحلَّ الضوء الأبيض إلى أنوار ملوّنة تبدأ بالأحمر والبرتقالي، ثم الأصفر والأخضر، فالأزرق، فالنّيلي، فالبنفسجيّ.

انتشرت ألوان الطّيف داخل السرداب فاخترق الضوء الجدران والسقف، وانبثق من الأرض. شعّت أكياس الفحم بألوان زاهية. تلألأ الجمر بوميض متدرّج لم يعهد آسر مثله. لكنه لم يحترق. لم يشتعل. خرجت موسيقى الجمر كالحرير. ورقصت الألوان حول ظلّ آسر الذي لم يعد ظلاًّ بل صار موشوراً من الكريستال.

عمَّ اللّون الفوسفوري. ثم لاحت شاشة عريضة في الهواء:

مرّت على الشاشة أشجار تتسلق الجبال... مرّت أسراب من البط المحلّق بالألوان... صارت الطيور والحيوانات تكبر، وتتمدّد، ثم تتلاشى...

ركضت عظاية زاحفة وراء فراشة. وأخيراً ظهرت نرجسة وصاحت في نحلة كانت تطنّ حولها: «يكفي الآن! لم يعد عندي رحيق!»

مرّت قرب النرجسة وفود مسرعة من النّمل والسّوس والأَرَضَة والفسفس...

وبعد أن غابت الكائنات الصغيرة ظهر قرد في يده رفش، وأخذ يضرب الصُّوَر الكثيرة عن اليمين وعن اليسار، والصّور تتطاير... والقرد يشقّ طريقه بينها بواسطة الرّفش...

عاد اللّون الفوسفوري إلى هواء السرداب.

تحرّك الهواء موجات موجات موجات.. فوسفورية.

انطلقت من البعيد كرة صغيرة كأنها بيضة. وبدأت تكبر وهي تتقدّم. انفتحت الكرة، انشقّت إلى شطرين مثل بيضة رخّ، وخرج منها: هو! هو! نعم! هو!

كلّ شيء على الشاشة

صاح آسر بعينيه وأذنيه ويديه وأنفه وفمه:

بُـــــوشُـــوِيـــشَـــة!

ارتسم الاسم على الشاشة الفوسفورية بحروف كبيرة.

وما هي إلا ثوان قليلة حتّى ظهرت بعدها حروف وكلمات أخرى:

بوشويشة صديق آسر!

عادت تلك الكلمات تَبْهتُ قليلاً قليلاً حتى امّحتْ تماماً من شاشة الضوء، ثم حلّت محلّها كلمات جديدة:

ريحان خادم مملكة الأخيضر!

اندفعت دموع آسر تنهمر مثل «التَّبْرُوري» أي البَرَد، ثم بدأت تظهر حتى على الشاشة، بينما بوشويشة يرفع يديه ويخبط بقدميه صائحاً:

ـ كفى يا صديقي، أكاد أغرق!

ـ يا حبيبي بوشوشة! قال آسر.

ـ منذ الآن لم أعد بوشويشة، أنا ريحان خادم مملكة الأخيضر!

ـ ريحان؟ صاح آسر مستغرباً، لماذا غيَّرتَ اسمك؟

ـ لم أغيّره، قال بوشويشة، صار اسمي بوشويشة لأنك سمّيتَني كذلك، أما عندنا فأنا ريحان خادم مملكة الأخيضر. هل وجدتَ القط الأسودَ؟

ـ لم أجده، أجاب آسر، جئتُ إلى هنا من أجله...

ـ هو الآن أمامك! قال ريحان ـ بوشويشة.

ـ أنا لا أراه، قال آسر.

ـ أنا في خدمة الملك الأخيضر، قال ريحان ـ بوشويشة.

عسل!

من بعيد... من بعيد جئتُكَ يا صديقي.

اخترتك يا صديقي.

لكنك كنتَ بعيداً عنّي، ولم تكن ترى المسافة التي تبعدك عنّي.

الآن صارتْ لك عينان، مثلي، تَرَيَان.

سوف تراني عن بعد وعن قرب، ولن تنتظر حتّى أُطلَّ عليك من الشُّباك.

صارت لك أُذُنَانِ، مثلي، لتسمعني، يا حبيبي.

صَارَ لك فمٌ، مثلي، لتمتلىء بي، يا حبيبي.

صار لك أنف، لتشمّ حيرتي عن بعد، وتساعدني، يا حبيبي.

صارت لك يدان، لتفتح مغاليق الدماغ وتفهمني، يا حبيبي.

هي لحظتنا في العالم صارت واحدة، يا حبيبي.

كنتُ أطلّ عليك من الشباك فلا أراك إلا غريباً، ولا تراني إلا غريباً:

كان نمير هو الغريب، يا حبيبي.

ها أنذا أفتح الأبواب والأسوار كي تدخل: فادخلْ يا حبيبي.

عربة تجرّها خمس أفراس

توقّف ريحان بوشويشة عن كلامه المتقاطر عسلاً فوق آسر، ثم أشار إليه بإصبعه منبّهاً:

ـ دعْني الآن أخرج من هنا، حتى نكفّ عن الرؤية عبر المرآة.

قفز ريحان بوشويشة تاركاً الألوان والأضواء تتموّج، وتستجمع شطرْي قشرة البيضة التي خرج منها قبل قليل، وكذلك ما تبقّى من دموع آسر.

ابتعدت الموجات الملوّنة مع أصوات كهفيّة تلاشت تدريجيّاً حتى اختفت الشاشة الفوسفورية كلّها.

ـ الآن، لا أحد يفرض علينا طريقته في الرؤية قال ريحان بوشويشة.

ـ حَدَثْتْ لي أشياء غريبة هنا، قبل مجيئك، قال آسر وهو يعانق ريحان بوشويشة، ويبادله القبلات.

ـ كنتَ في دهليز الحواس المُزَيَّت، قال ريحان بوشويشة، كنتَ تذهب عبر كل الاتّجاهات ولا تصل.

ـ كنتُ في دهليز الفحم، قال آسر.

ـ كنت في عَرَبَةٍ تجرّها خمس أفراس هائجة في كلّ اتجاه، فلا تتقدّم إلاّ إذا تعاونتْ، لذلك لا تتوغّل بعيداً.

ـ عربة وأفراس؟

ـ أنتَ العربة، قال ريحان بوشويشة، وكلُّ ثقب فيك فَرَس!

يستطيع أن يصير أسْوَدَ ويسافر

ظلّ آسر فرحاً بريحان بوشويشة لكنّه لا يدري ماذا يفعل. قال:

ـ رأيتُ بائع الفحم!

ـ الآن، أنت جاهز! قال ريحان بوشويشة.

ـ لماذا؟

ـ هل نسيتَ مملكة الأُخَيْضَر؟

ـ كلا، لم أنْسَ!

ـ سنذهب إليها معاً، إذاً!

ـ كيف؟

ـ ننتظر مجيء سيارة الفحم.

ـ لماذا نذهب في سيارة فحم؟

ـ لا يوجد حلّ آخر، قال ريحان بوشويشة، نحتاج إلى اللّون الأسود، هل لَدَيْكَ طريقة أخرى تمكّننا من السفر في اللّون الأسود؟

ـ أنا؟ كلاَّ... الليل؟

ـ الليل نهار؛ يصير أسودَ حتى يسافر، قال ريحان بوشويشة، ألاَ تستطيع أن تصير أسود كي تسافر؟

ـ كلاّ... أجاب آسر، الفحم؟

ـ أنا أستطيع أن أصير أسود وأسافر، قال ريحان بوشويشة، لكنني في هذه المرة لن أفعل ذلك...

ـ لماذا؟ سأله آسر.

ـ لأنّك ستسافر معي أجاب ريحان بوشويشة.

سِرُّ القطّ الأسود

انتبه آسر الآن إلى عودة الضّجيج خارج القبو. كانت هناك عصافير تغرّد مع حلول المساء، سيّارات تمرّ من بعيد. فجأة سمع صوت قط يموء:

ـ هذا صوت قط يموء في القبو، لعلّه القط الأسود!

ـ كلا، قال ريحان بوشويشة، هذه قطة حامل سنأخذها معنا.

ـ قطة حامل؟

ـ نعم.

ـ والقط الأسود، أين ذهب؟

ـ القط الأسود! هاها! أنا القط الأسود! قال ريحان بوشويشة.

ـ لا أصدّق! قال آسر.

ـ أنا القط الأسود، وأنا ريحان أيضاً، ألا أُشْبِهُ ريحان؟

ـ لكنك لا تشبه القط الأسود؟

ـ لا أشبهه لأنني تحوّلت إلى قط كي أتعرّف إلى طباع القطط!

ـ ولماذا تتعرف على طباع القطط؟

ـ أنا في خدمة الملك الأخيضر والمملكة مهدَّدَة بالجرذان.

ـ أليس عندكم قطط؟

ـ نحن لا نعرف القطط، حدَّثَنَا عنها مُفَكِّر الإمبراطورية، فأرسلني الملك الأخيضر لأجلب قططاً من عندكم.

ـ مادمتَ قادراً على التحوّل إلى قط أسود، لماذا لا تفعلون ذلك كلّكم هناك، وتفترسون الجرذان؟

ـ سؤالك ذكي، لكننا لا نكتسب طباعَ مَنْ نتحوّل إلى جِسْمِهِ!

ـ وهل ستأخذ قطة واحدة؟

ـ نعم، واحدة، لكنها حامل، هذه فكرة مفكّر الإمبراطورية.

ـ وهل كان لابدّ من التحوّل إلى قطّ؟

ـ نعم، لابدّ من دراسة طباعها قبل إدخالها إلى المملكة حتّى نعرف كيف تتصرف هي، وكيف نتصرّف معها بدوْرنا، هذه فكرة مفكّر الإمبراطورية.

ـ مفكر الإمبراطورية؟

ـ نعم، دَيْدَحَان مفكّر الإمبراطورية.

حيلة أخرى

استغرب آسر وجود جرذان في مملكة الأخيضر من دون وجود قطط، وسأل ريحان بوشويشة:

ـ أليست عندكم حيل أخرى لاصطياد الجرذان؟

ـ ما معنى «حيل» سأله ريحان بوشويشة، هل هي قطط أخرى؟

ـ لا أقصد القطط، أجاب آسر، أقصد الفخاخ...

ـ نحن لا نستخدم الفخاخ، لكن مفكر الإمبراطورية أرسلني في مرة سابقة لآتي بحامل فخاخ!

ـ وهل أخذْتَه إلى هناك؟

ـ نعم، كما آخذ القطة الآن.

ـ وماذا يفعل حامل الفخاخ إذاً؟

ـ هو الآن في المملكة، ينصب الفخاخ، ويضع قصاع الماء حول مخازن الحبوب حتى تقفز الجرذان وتسقط في الماء.

ـ ألم تنجح هذه الحيل في القضاء على الجرذان؟

ـ بالعكس، ازداد عددها. وقال مفكر الإمبراطورية إن مجرّد رؤيتها لسلالة القط سوف تملؤها رعباً فتغادر المملكة.

ـ قططنا لم تعد تأكل الجرذان! قال آسر.

ـ هأ؟ يجب أن تجوع كثيراً، قال ريحان بوشويشة، أنا درستُ طباعها. أما أنتم فقد كَدَّسْتُمْ مزابلكم فتدلّلت قططكم.

ـ هناك حيلة أخرى، حدثني عنها أبي، قال آسر.

ـ وما هي هذه الحيلة؟

ـ يكفي أن تقبضوا على بعض الجرذان الذكور، وتخيطوا مؤخراتها، فتُصاب بإمساك دائم، ثم بحالة عصبيَّة فتّاكة...

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك تنقضُّ الجرذان العصبيّة على بقية الجرذان وتُبيدها.

ـ هأ، ها أنذا أحمل معي حامل فخاخ آخر ولا أدري!

ـ أَسمعُ مواء القطة ولا أرَاها، قال آسر.

ـ هي في ذلك الصندوق المثقوب حتى تتنفّس، أجاب ريحان بوشويشة.

ـ لماذا ل اتضعها في أحد أكياس الفحم حتى لا ينتبه سائق الشاحنة؟

ـ لكنّ سائق الشاحنة من عندنا! أجاب ريحان بوشويشة.

حلقة تدور ولا تتوقف

خرج آسر وريحان بوشويشة من قبو المبنى غير المكتمل؛ فأحسّ آسر بأنه في عالم آخر كاد ينساه. وأدرك أنّه جائع أيضاً. فاقترح على ريحان بوشويشة أن يقطف حبّات تين ومشمش. فقال ريحان بوشويشة:

ـ أنت تحبّ المشمش، أليس كذلك؟ اذهبْ لقطفه إذاً، حتى يصل أَبَّة!

لم تكد تمرّ برهة قصيرة حتى دوّى صوت محرّك الشاحنة نفسها. ثم نزل منها السائق أَبَّة وقال:

ـ كنتُ سأتركك تركب بجانبي عندما تعلّقت بالسيارة في الشوارع.

ـ لم أكن أعرف أنك من مملكة الأخيضر، قال آسر.

ـ الأخيضر مملكة، علَّقَ أَبَّة قالباً الكلمتين الأخيرتين من كلام آسر وأضاف: لو طلبتُ منك أن تركب معي لشكَكْتَ في الأمر، أليس كذلك؟

ـ ولكن هذه حيلة، قال آسر مخاطباً ريحان بوشويشة، كيف تقول لي إنكم لا تعرفون الحيل؟

ـ نحن لا نعرف الحيل، أجاب ريحان بوشويشة، ربما كانت هي التي تعرفنا!

ـ تعرفنا التي هي، علّق أبّة، ما هي الحيل؟

ـ هي عدم الذهاب إلى ما تريد بطريقة واضحة ومباشرة. أوضح آسر.

ـ مباشرة وواضحة، كرّر أبّة.

ـ أي ملتوية، أضاف آسر.

ـ ملتوية أيْ، كرّر أبَّة، لكن الطرقات ملتوية في هذا المكان أو ذاك!

ـ أقصد أن تفعل شيئاً، ومن أجل تحقيقه، تتصرّف بعكس ما يتوقّع، أو يريد الشخص الآخر. أضاف آسر موضّحاً أكثر.

ـ الآخر الشخص، كرّر أبّة، من هو الشخص الآخر؟

ـ لا أنا عرف كيف أفسّر الحيلة، ولا أنتَ تعرف كيف تفهمها، قال آسر.

وأمام هذه الحلقة التي تدور ولا تتوقف، وفي داخلها آسر وأبّة، تدخّل ريحان بوشويشة وقال:

ـ أنت يا آسر، عليك أن تبدّل الكلمة ولا تفسّرها، وأنت يا أبّة عليك أن تفهم بأنه لم يبدّل كلمة «حيلة» بكلمة «فخّ». أنه يقصد الفخّ!

ـ أهكذا تتكلّمون في مملكتكم؟ تساءل آسر محتاراً.

ـ مملكتكم في تتكلمون، كرر أبّة، في هذه الحال فإنّ الشخص الآخر لا يتصرّف كما تتوقع وتريد، أنت أيضاً!

تثاءب الشرطي ثم نام

ظلّ أبّة وريحان بوشويشة يراقبان السماء. آسر يفعل مثلهما ولا يفهم لماذا. وبعد أن طال انتظاره قرّر أن يسأل:

ـ متى ننطلق إلى مملكة الأخيضر يا ترى؟

ـ ترى يا الأخيضر، كرّر أبّة، مع حلول الليل.

ـ لماذا في الليل تحديداً؟

ـ تحديداً الليل في، قال أبّة، تتهيّأ الأمهات للولادة صباحاً.

ـ وما علاقتنا بذلك؟ سأله آسر.

ـ بذلك علاقتنا، أجاب أبّة، تكتمل الأجنّة والحليب والفُقُّس.

ـ لست أفهم كلامك، قال آسر.

ـ كلامك أفهم، ردّد أبّة، وتنمو الأظافر، والشَّعر، واللّحية.

اكتمل القمر بدراً فانطلقت السيارة. ولم تكد تغادر البستان، وتصل إلى مفترق الطرق المؤدية إلى أريانة وسكَّرة والمطار وبنزرت، حتّى صفّر الشرطي.

ـ ممنوع ركوب ثلاثة أشخاص في مقدّمة الشاحنة، قال الشرطي مخاطباً أَبَّة، ألا تعرف القانون؟ الأوراق لو سمحتَ!

ـ سمحتَ لو، ردّد أبّة، الأوراق؟

ـ أوراق السيارة وبطاقة التعريف، أكّد الشرطي.

ـ التعريف بطاقة، قال أبة ضاحكاً، وما الحاجة إلى كلّ هذه الأوراق؟

ـ إذاً...

ولم يتمكّن الشرطي من إكمال جملته، إذْ بدأ يتثاءب، ثم نام!

ـ ماذا فعلتَ له حتّى ينام؟ سأل آسر أبّة.

ـ ينام حتّى، كّرر أبة، لم أفعل شيئاً، هو الذي دخل قرية المسرنمين!

ـ قرية من؟

ـ منْ قرية؟ قرية السائرين في نومهم، أجاب أبّة.

ـ أرأيتَ كيف غيّر لك الكلمةَ؟ علّق ريحان بوشويشة.

ـ لكنّه ربطها ثم حلّها، قال آسر.

حديث عن قرية أبّة

انطلقت شاحنة الفحم مسرعة في الطريق المؤدية إلى بنْزَرت.

ـ هل المملكة في هذا الاتجاه؟ سأل آسر.

ـ الاتّجاه هذا في أيّ اتّجاه؟

ـ اتّجاه بنزرت، أوضح آسر.

ـ زرتْ بنْ، كّرر أبة، بن زرت؟

ـ لكنها كلمة واحدة، قال آسر.

ـ واحدة كلمة، والمملكة في كلّ تّجاه، أجاب أبة.

ـ لكنّ الشاحنة تسير باتّجاه بنزرت، قال آسر مخاطباً ريحان بوشويشة هذه المرّة.

ـ إذا كان هذا اتّجاهها، فهو ليس اتّجاهنا، أجاب ريحان بوشويشة.

ـ اتجاهنا ليس، فلتذهبْ كما تشاء، علّق أبة.

ـ ألستَ أنت السائق؟ سأله آسر.

ـ السائق أنت، هي التي تسوقني، أجاب أبة.

ـ إذا تركتَها هكذا، قد تقصد الجزائر قال آسر.

ـ الجزائر تقصد، وهل تعرف الجزائر وحدها؟

أراد آسر أن يخرج من هذه الدوّامة فسكت. لكنّه تجرّأ وسأل أبّة:

ـ لماذا تكّرر الكلمات الأخيرة مقلوبة دائماً؟

ـ دائماً مقلوبة، أجاب أبّة، هي التي...

قاطعه آسر مدركاً أنه عاد إلى دوّامة الحوار المغلق:

ـ نعم فهمتُ، فهمتُ نعم: تقلبني التي هي!»

ـ لكّنك لم تأتِ من قرية المقلوبين مثله، علّق ريحان بوشويشة.

ـ قرية المقلوبين؟

ـ عندنا قرية مقلوبة بالمملكة، أوضح ريحان بوشويشة.

ـ بالمملكة مقلوبة، ردّد أبّة ثم سكت.

صعود راكب آخر

لاح على جانب الطريق شخص يشير بيده، فخفّف أَبَّة من سرعة الشاحنة ثم توقف.

ـ هل أركب معكم، قال الرّجل وهو يطلّ من نافذة الشاحنة، أنا الشاعر الأبرق كَرْدُوس.

ـ كَرْدُوس الأبرق، ما معنى شاعر؟ سأله أبّة.

ـ يكتب المحفوظات، أجاب آسر.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ سأله ريحان بوشويشة.

ـ إلى البيت الذي فيه مرآتي، أجاب الشاعر.

ـ وهل في بيتك مرآة فقط؟ سأله ريحان بوشويشة

ـ مرآتي هي ذاتي، قبل مجيئها إلى هذا العالم المنهار! قال الشاعر.

ـ المنهار العالم، ردّد أبّة، هَهْ! أنت تتكلّم بالحيل! اصعدْ معنا إذاً...

ـ لا مكان لك هنا، قال ريحان بوشويشة، اركبْ في الصندوق الخلفي.

صعد الشاعر الأبرق كردوس إلى صندوق شاحنة الفحم التي تابعت طريقها، وبعد لحظات سُمع وهو يصيح:

ـ طفولتي لم تكن فحماً، يا سادة!

ـ لا يحبّ اللون الأسود، قال ريحان بوشويشة.

ـ لا يحبّ الفحم، قال آسر.

ـ وما هذا المواء في الصندوق؟ صاح الشاعر الأبرق كردوس.

ـ ألم تكنْ في طفولتك قططٌ؟ تجرّأ آسر وسأله.

ـ قسّمتْ حياتي المصادفات، قال الشاعر.

ـ فات المصاد؟ كرر أبة.

ـ هذه كلمة واحدة، أوضح آسر.

ـ وفَاتَتْك الطفولة، لو عدتَ إليها لما عرفتَها، قال ريحان بوشويشة.

ـ أعرفها بشموسها ومياهها وطيورها، صاح الشاعر من الصندوق.

ـ لكنّها لا تعرف العارفين، ألم يكن فيها فحم وقطط؟

ـ قطط وفحم، كرّر أبة.

في كلامهم فخاخ للجرازين

بعد اجتياز مسافة قصيرة من الطريق، ظهر بين طيّات الظلام رجل آخر يمدّ يده باتّجاه أضواء السيارة:

ـ فحم وقطط، قال أبة، مكّرراً آخر الكلمات التي سمعها في الحوار، وقد نسي أنها كلماته، هذا شاعر آخر!

ـ أنا الرسّام الزّاهي بُوتَرْزِيزَة، قال الرجل الواقف إلى جانب الطريق.

ـ زيزة بوتر؟ هل هي كلمة واحدة، إلى أين أنت ذاهب؟ سأله أبة.

ـ إلى حيث أُغَيّر الأمكنة التي تجمّدت فيها العلامات، قال الرسام.

انفجر أَبَّة ضاحكاً، وصار يخبط مسندَ المقعد بعُنقه، ومُنَبِّهَ السيارة بكلتا يديه:

ـ مات العلا، مات العلا فيها، هذه أصعب الحيل! هيّا اركبْ! نحن في حاجة إلى مثل هذه الحيل، مادام حامل الفخاخ قد فشل في مهمّته.

ـ هل تحبّ القطط؟ سأله ريحان بوشويشة، هناك قطة في الصندوق!

ـ ولماذا تحملون قطّة في صندوق؟ سأله الرسّام الزّاهي بوترزيزة.

ـ صندوق في قطة، نحول شاعراً، قال أبة.

ـ هل سنأخذ معنا كلَّ مَنْ يستوقفنا في الطريق؟ سأل آسر.

ـ لا يستوقفنا ليلة اكتمال البدر إلاَّ مَنْ في كلامهم فخاخٌ للجرذان، أجاب ريحان بوشويشة مبتهجاً.

ـ العالم متفحّم هنا! صاح الرسام الزاهي بوترزيزة.

ـ أهلاً وسهلاً بك، قا الشاعر الأبرق كردوس مرحّباً، المصادفات قسَّمتْ حياتي.

فأس لمياه الباطن

يا لها من مبالغة! لم تتقدّم السيّارة، الآن إلا بضعة أمتار:

ـ أهي مصادفة أخرى أم خطّة مقصودة؟ سأله آسر.

ـ مقصودة خطّة؟

ـ أقصد هذا الشخص الجديد الذي يشير إلينا مرّة أخرى بالتوقف!

ـ نحتاج إلى موسيقار! علّق الرسام.

ـ قار موسي؟ هل هي كلمة واحدة؟ سأل أبَّة.

ـ هل أركب معكم؟

ـ كنّا في انتظارك، قال الرسام الزاهي بوترزيزة، هل أنت موسيقار؟

ـ أحسن موسيقى هي التي لا تُعزف، أجاب الرجل.

ـ هل لك علاقة بالصّمت؟ سأله الشاعر.

ـ نعم، أجاب الرجل، الإيقاع موجود في كلّ شخص لكنّه ينتظر ضربة فأس تفجّر مياه الباطن.

ـ الباطن مياه، أنت موسيقار إذاً؟

ـ أنا موسيقار إذاً!

ـ المهمّ أن تُجيد الحِيَل، تدخّل آسر ناصحاً، وفي هذه الحال يقبلونك.

ـ وما هي الموسيقى غير الاحتيال على الصّمت؟ أجاب الرجل.

ـ الصّمت على الاحتيال، رائع جدّاً، هيّا معنا للجرذان!

ـ لا أريد جرذاناً، اعترض الرجل، أريد فسخ ضجيج العالم!

ـ العالم ضجيج، فلنبدأ بالجرذان، قال أبة.

ـ ما اسمك؟ سأله آسر.

ـ كَعْبَاشي الكَرَاولي، أجاب الرجل، أنا الموسيقار كعباشي الكراولي.

استغرب آسر هذا الاسم، مرّة أخرى، وقال في سّره: «كثُرتْ الأسماء المكعبشة هذه الليلة! كيف سأحفظها؟»

ـ سأحفظها كيف، ردّد أبة، ولماذا تحفظها؟

ـ لكنني تكلّمت في صدري، قال آسر مندهشاً، كيف عرفت ما أفكّر فيه؟

ـ فيه أفكّر، أجاب أبّة.

رائحة سمك

«إلى متى ستظلّ الحكاية تجمع ركّابها كما يفعل القطار؟» فكّر آسر في سّره، ثم التفت إلى أبّة السائق:

ـ هل سمعتَ ما قلتُ الآن من كلام في صدري؟

ـ صدري في كلام، أجاب أبة، لكنّك لم تتكلّم حتّى أسمعك.

ـ لن نأخذ أحداً بعد الآن! قال ريحان بوشويشه.

ـ أنت أيضاً؟ تساءل آسر وأضاف: هكذا أحسن لم يعد يوجد مكان.

لكنْ، بَعْدَ مسافة أخرى، قصيرة، كان آسر هو الذي طلب من أبّة أن يوقف الشاحنة. لقد لمح تحت كشّاف الأضواء رَجُلَيْن آخريْن يتشابكان بالأيدي ويندفعان نحو السيارة:

ـ أمّا هذان الشخصان فأعرفهما! قال آسر متفاجئاً.

ـ تأخّرنا كثيراً، قال الجندي الأول.

ـ الخَمْسَة ما حَرَّرْشْ، قال ذو إصبع الحنّاء.

ـ ألم تصلْ إلى الجبهة بعد، مع إصبع الحنّاء، يا دوّاس؟

ـ لكي نصل يجب أن نربح الوقت في سيّارتكم، أجاب الجندي الدوّاس، ثم انتبه قائلاً: هَهْ؟ تعرف اسمي؟

ـ رأيتُكَ لمّا اشتريت الإبرة، أجاب آسر.

ـ هيّا، الخمسة ما حرّرش، الخمسة ما حررش، كرّر إصبع الحنّاء وهو يجرّ الدوّاس إلى صندوق الشاحنة.

صعد الجنديان إلى الشاحنة ففاحت رائحة سمك. صاحت القطة وصارت تتلوّى، داخل الصندوق، وتموء، كما تفعل القطط الجائعة.

ـ هربنا من الثكنة بسبب القطط، قال الدوّاس.

ـ أأنت جنديّ أم بائع سمك؟ سأله الشاعر الأبرق كردوس.

ـ نحن جنديان تلاحقنا القطط، أجاب إصبع الحنّاء، صاحبي الدوّاس يتنقّل بي هارباً من الرائحة، والرائحة تلاحقنا حتّى ترى القطط!

تفقّد الركاب

...مع آسر، وريحان بوشويشة، والسائق أبّة، والقطة الحبلى، وأكياس الفحم، تنقل الشاحنة الآن حسب أولوية الصعود إليها:

* الشاعر الأبرق كردوس، وحيلته البحث عن مرآة الطفولة.

* الرسّام الزاهي بوترزيزة، وحيلته الغامضة هي البحث عن أمكنة لم تتجمّد فيها العلامات، كما قال بنفسه.

* الموسيقار كعباشي الكراولي، وحيلته الاحتيال على الصّمت.

* الجندي الدوّاس، وحيلته الهروب الدائم من الثكنة مع البحث عن جبهة الحرب، بسبب القطط.

* الجندي الثاني، ذو خنصر الحنّاء، وحيلته ضبط الوقت خارج الوقت.

ـ والآن، ينقصنا عَالِم أو مفكّر! قال آسر.

ـ أنت العالم! قال ريحان بوشويشة، لأنك ستقضي على الجرذان بالحالة العصبيّة! أما المفكّر فلا نحتاج إليه!

ـ ولماذا لا نحتاج إليه؟

ـ عندنا، هناك مفكّر الإمبراطورية دَيْدَحَان. أجاب ريحان بوشويشة.

ـ ديدحان الامبراطورية، ردّد أبة، وأنتَ العالم!

ـ ها ها ها! هذا الطفل عالم! علّق خنصر الحنّاء ساخراً.

ـ ليست له رائحة سمك، ردّ ريحان بوشويشة، ولا يهرب من القطط!

ما هي حيل القطط؟

احتدَّ النقاش، في مقدّمة السيارة وفي صندوقها، حول أهمية كلّ حيلة من الحيل التي يتميّز بها أفراد المجموعة. فتدخّل ريحان بوشويشة لتهدئة الجميع:

ـ كلّلكم سوف تفيدوننا في فهم طباع القطط!

ـ القطط طباع، ردّد أبّة.

ـ كَسَلٌ مُتَنَاوِمٌ أمام نار لا تنام، يشحذُ براثنه لقَنْصِ الظّلام، قال الشاعر الأبرق كردوس.

ـ ذهبٌ يخضرُّ في عيونها، يمتصّ خيوط الضوء، قال الرسام الزاهي بوترزيزة.

ـ مخالب تعزف الصَّمتَ على وسادات النّيام، قال الموسيقار كعباشي الكروالي.

ـ محتالة، ماكرة، تسرق الحليب واللحم، قال الجندي الدوّاس.

ـ تموء بمهماز يمزّق لحم الصمت، قال إصبع الحنّاء.

ـ الصمت لحم! أنت موسيقار أيضاً، قال أبة.

ـ لكنْ ما هي حِيَلُها؟ سأل ريحان بوشويشة الجميع.

ـ حيلها في العين والإشارة، قزحيّة العيون تصطاد بالإنارة، قال الشاعر الأبرق كردوس.

ـ تشم رائحة السمك، قال الجندي الدوّاس.

ـ وتناديها، أضاف إصبع الحنّاء.

ـ تعرف الوقت، قال الرسّام الزاهي بوترزيزة.

ـ ذيلها فصيح، فال الموسيقار.

ـ القطط كالأطفال، قال آسر.

ـ كالأطفال القطط، ردّد أبة، لكنّك لا تأكل الجرذان!

ـ لأن لعبتها فأر تكسره بعد اللعب، وتأخذ ما تريد إذا لم يعطها أحد، ردّ آسر، تبدأ تدرُّبَها على الصّيد بالركض وراء ذيلها وملاحقة ظلّها... بلا تعب.

خبرة قط أسود

كلّهم يتكلّمون الآن، والمستمع الوحيد هو... القطّة داخل الصندوق! وكعادة ريحان بوشويشة في تنظيم الفوضى تدخّل قائلاً:

ـ لا جديد في ما ذكرتُمْ من حيل القطط إلا الاحتيال بالكلام على حيل القطط.

ـ القطط حيل، كرّر أبة، ألم تدرس طباع القطط يا ريحان؟

ـ لديّ حكايات كثيرة عن طباع القطط!

ـ وما هي تلك الطباع؟ سأله آسر.

ـ أهمّ حيلة هي احتيالها على المحتالين: كلّ قط هو مرآة صاحبه!

ـ صاحبه مرآة! قال أبة.

ـ نعم، قال ريحان بوشويشة.

ـ هذا ما قلتُه قبل قليل، قال الجندي الدوّاس.

ـ أبحث عن المرآة، قال الشاعر الأبرق كردوس.

ـ تظنّون أنّ القطط أنيقة ونظيفة، وهي في الحقيقة لا تنظّف نفسها...

ـ كيف؟ قاطع آسر ريحان بوشويشة مستغرباً، إنها تلحس...

ـ عندما تلحس فروتها، لا تقصد تنظيفها، بل تقصد تمديد حياتها...

ـ كيف عرفت ذلك؟ سأله الشاعر الأبرق كردوس.

ـ بالتجربة! غسلتُ قطة مرات متتالية لمدّة نصف شهر فعلتُ ذلك بقطن مغمّس في الأثير، فكفّت القطة عن لحس دهون شعرها وماتت!

ـ ألهذا تخاف القطط من الماء؟ سأل آسر.

ـ هذه حيلة أخرى: عندما يقترب القط من الإنسان، أو يحكّ رأسه على رجل الضيف، لا يفعل ذلك حبّاً وملاطفة، بل يضع إفرازاته الغدديّة عليه. وهكذا يتخلّص من قلقه ومن هذا الشخص الطارىء الذي أخضعه فلم يعد يشكل خطراً عليه.

ـ من أين لك هذا؟ سأله الموسيقار كعباشي الكراولي.

ـ بخبرة قطّ أتكلّم! قال ريحان بوشويشة، وذلك ما يفعله القط أيضاً على الأريكة والسرير، وكلّ مكان في البيت...

ـ بخبرة قط أسود! أوضح آسر.

ـ نَوْ! نياْ! مِعَوْ! مياوْ! قالت القطة بعَّدة لغات.

سؤال مايزال يحيّر ريحان بوشويشة

طلب ريحان بوشويشة من جميع الركّاب أن يسكتوا، وينتبهوا جيّداً إنْ كانوا يريدون الاستماع إلى المزيد من الأسرار والحكايات عن القطط. ولما انتبهوا إليه وطلبوا منه أن يرفع صوته حتى يتمكّنوا من السماع جيّداً، قال بصوت عال:

ـ أسألكم أوّلاً، ولا أريد إجابة الآن: أيكون القط هو الإنسان، أم الإنسان هو القط؟ قطط البيوت تتصرّف حسب طباع أصحابها فتبدو تابعة لهم. لكنها في الواقع تخدعهم، وتحافظ على استقلالها عنهم وهي تراقبهم، لتتصرّف وفق سلوكهم.

سكت ريحان بوشويشة قليلاً، وكأنه يلتقط أنفاسه بسبب التحدّث بصوت عال، ثم أضاف:

ـ عندما كان اسمي بوشويشة راقبت قطّةً وَلَدتْ لتوّها أربع قُطَيْطات. في البداية رفضها صاحب البيت السابق وحاول التخلص منها. فقامت الأم بجوْلة في الجوار، ورصدت بيتاً جديداً فيه بنيّتان وطفل، ثم اختبرت نفسيّة والديْهم وردود فعل الجميع بعد اقترابها منهم. قالت: «إنّهم يريدون القطط، لن يطردوني ويطردوا صغاري، بالعكس، من المنتظر أن يفرحوا بنا: مَعَوْ!» ووقع الجميع في فخّ الفرح المُؤقت! وهكذا استقبلوا القطة وأبناءها، وأبناء أبنائها، حتى جاء يوم صاروا فيه يريدون التخلّص من غزو القطط. لكن القطط التي تولد متنقّلة بين بيت وآخر، تكبر نصف متوحشة، ويصعب الإمساك بها؛ فتُلاَزِمُ المكانَ وتأخذ ما تريد إذا لم يعطها أحد، كما قال آسر!

استردّ ريحان، بوشويشة سابقا، أنفاسه مرّة أخرى وقال:

ـ لقد تبحَّرتُ في دراسة طباع القطط، بخبرة قطّ، لكنّ السؤال الذي ما يزال يحيّرني؛ ولا أريد منكم إجابة، هو: أيكون الإنسان هو الذي دجَّن القطط، أم إن القطط هي التي دجّنت الإنسان عبر العصور؟

لا أحد يصل...

طالت الرحلة في الظلام وطال الحديث، ولم يصل أحد إلى مكان يقصده. بل لم يظهر على ركّاب المؤخرة، أنّ أحداً منهم قد اقترب من الوصول.

ـ ألم يصلْ أحدٌ حتى الآن؟ سأل آسر ملتفتاً نحو النافذة الصغيرة خلفه.

ـ لا أحد يصل في الليل، قال الشاعر الأبرق كردوس.

ـ لكي نصل، ينبغي أن نرى أوّلاً أننا وصلنا، قال الجندي الدواس.

ـ نعم، في الليل تبدو كل القطط سوداء، قال الموسيقار كعباشي الكراولي.

ـ بل رماديّة، قال الرسّام معترضاً، وإلا كيف ترى الأسود في الأسود؟

ـ هذا ما قلته، قال إصبع الحنّاء، ثمة صوت آخر...

ـ إنها القطة الحامل، قال آسر.

ـ القطة الحبلى في هذا الصندوق، أصرّ إصبع الحنّاء، ثمة صوت آخر يموء.

ـ بسبب رائحة السمك، قال الموسيقار كعباشي الكراولي.

ضحك الجميع. التفت آسر إلى ريحان بوشويشة متسائلاً:

ـ هل السفر معكم هو الذي يجعلني أكبر؟ أشعر بأنني أكبر...

ـ هذا استقبال المملكة للحواس، عن بعد، أجاب ريحان بوشويشة، القطة أحسّت بالتبّدل مثلك، أما الأفكار فهي من شأن ديدحان، خادم الدماغ في المملكة.

ـ المملكة في الدّماغ، علّق أبّة، في الليل ينمو الشّعر والفقّوس أكثر.

ـ ما أحلى أيام الطفولة! قال الشاعر الأبرق كردوس.

ـ لستُ متأكّداً من جدوى هذا الصّمت، قال الموسيقار كعباشي الكراولي.

ـ طالتْ قماشة الليل، قال الرسام الزاهي بوترزيزة.

ـ كأنما الكبير يصغر، والصغير يكبر، في هذه الرحلة، قال آسر.

أبّة يهتزّ

بدأت السيارة تشقّ دروباً ترابيّة وعرة والركّاب يهتزّون.

ـ في أيّ طريق، نحن الآن؟ تساءل آسر.

ـ في ليل بلا طرقات، أجاب ريحان بوشويشة.

ـ طرقات بلا ليل، توقيتنا غير توقيتكم، أوضح أبّة.

ـ كيف؟ سأل آسر.

ـ الخَمْسَة ما حَرَّرْشْ! قال خنصر الحنّاء.

ـ عندما تمرّ ساعة، يلعب الليل عندنا مع النهار ساعة، أجاب ريحان بوشويشة.

المنحدر الأزرق

ـ اِنْتَبِهوا، صاح ريحان بوشويشة، الآن نحن على حافة المنحدر الأزرق!

ـ الأزرق المنحدر حافة على نحن الآن، كرّر أبّة مهتزّاً.

ـ الآن... تبدأ... الـ...

ـ الـ... تبدأ... الآن... هزّة!

وما هي إلا لحظات حتّى شعر الجميع بتلك الهزّة...

لقد سقطوا في المنحدر الأزرق:

ـ «عن أية شاحنة تتحدّث؟» قال ريحان بوشويشة مبتسماً.

وبدأ آسر يبتلع جرعات كبيرة من الهواء «ما به الهواء هنا؟ كأنّه يُؤْكَلُ أَكْلاً!»

استأذن الشاعر كي يذهب للّعب. وتملَّكَتِ الجنديَّ الدوّاس نوبةُ هجومٍ حربيّ. وبكى خنصر الحنّاء لأنّه إذا كبر وتروّج سوف يفقد صديقه الدوّاس. وبدأ الموسيقار يركض على يديه. وسقط الرسام في بركة ضفادع.

لكنّ القطة ماءت بأربعة أصوات صغيرة.

وسأل آسر عن مفتاح المملكة الأزرق.

ضحك أبّة. وبسط ريحان بوشويشة يده اليمنى أمام آسر أَنْ:

ـ «اُدْخُلِ الآن مملكة الأخيضر، لستَ في حاجة إلى مفتاح أزرق. ألم تتخيّلها وتنتظرها، وتأتي إليها؟ أنتَ الطريق الرابعة إليها!»

في مملكة الأخيضر

فجأة طار لقلق

وجد آسر نفسه في حفرة واسعة، لكنها ليست عميقة جدّاً. من حسن الحظ أنّ أحدهم يتحرّك هناك، في طرف الحفرة.

لم يتوصل آسر إلى تمييز ملامح ذلك الشخص المتململ. بدَا له شخصاً غريباً. ما أطول أنفه وذقنه، وما أضمر خدَّيْه! كأنه لقلق. كلاَّ، إنه إنسان!

أشار إليه آسر فلم يظهر عليه الانتباه. لاح منشغلاً بأمر غامض أمامه. لذلك لم يظهر منه سوى ظهره منحنياً، جانبيّاً، على التّربة. ألوانه باهتة، متبدّلة. أَكَانَ قميصه أصفر، أم أبيض؟

الشخص الغريب، في الطرف الآخر من الحفرة، يضع يديه على الأرض ويحاول الوقوف ببطء شديد.

أخيراً وقف. وها هوذا يلتفت نحو آسر من دون أن ينتبه إليه.

ـ أبّة! صاح آسر.

لكنّ أبّة لم يجب. كان جسمه قد تغيَّر.

لقد فقد الكثير من اللّحم. لم يعد سميناً. صار أقرب إلى طائر خفيف. غير أنّ وجهه يشبه اللقلق حقّاً.

ذلك ما فكّر فيه آسر، في صدره، سرّاً ثم قرّر أن يكلم أبّة وينادِيه بصوت عال هذه المرّة:

ـ حقّاً اللقلق يشبه! صاح آسر مقلّداً ومداعباً أبّة.

لكنّ أبّة لم يجبْ

فجأة طار لقلق، فعبَّ آسر جرعات كبيرة من الهواء.

أين إصبع الحنّاء؟

اختار آسر الجانب المرتفع من حافة الحفرة الواسعة. وهكذا استطاع، بقليل من الجهد، أن يخرج منها ليبحث عن أصدقائه الآخرين.

أوّل من رأى كان ريحان الذي سمّاه آسر بوشويشة، بسبب خصلة جانبية فالتة من شعره بطولٍ غير معتاد.

كان ريحان منهمكاً في البحث عن شيء ما. اقترب منه آسر فدهش لملامح وجهه التي تغيّرت. لم يعد يشبه بوشويشة إلا في خصلة الشعر الجانبيّة. لكن تلك الخصلة زادت طولاً. فهل هو ريحان بوشويشة حقّاً؟

رفع ريحان يده في الهواء وأشار إلى آسر أنْ: تعال!

ـ هل أنت ريحان؟ سأله آسر.

ـ نعم! ها أنتذا لم تَنْسَنِي. أنا الآن صرت ريحان فقط!

ـ عمَّ تبحث هناك؟

ـ أبحث عن القطة، أجاب ريحان، عن صندوق القطة، تعال وابحثْ معي.

انصرف ريحان وآسر يبحثان عن صندوق القطة. كان ريحان يصفّر ويغنّي مرحاً أكثر من عادته. وَجَدَا أبَّة يبحث في الحُفر وتحت الأعشاب.

اندفع الجنديّ الدوّاس فجأة، من وراء صخرة، وفي يده عصا:

ـ بُمْ! بُمْ! لقد رأيتكم! استسلموا وإلاّ أطلقت الرصاص!

ـ أين إصبع الحنّاء؟ سأله آسر.

ـ يتسلّق تلك الشجرة باحثاً عن أعشاش العصافير، أجاب الجندي الدوّاس.

وبعد برهة، اقترب منهم الشاعر الأبرق كردوس مدندناً بقافية تنتهي بالقاف، ثم جاء الموسيقار كعباشي الكروالي صامتاً، لا ينطق بكلمة واحدة:

ـ أأسكتَك الصّمتُ أم الصدمة؟ سأله كردوس.

لكنّ الموسيقار لم يجب. فالتفت الجميع نحو الرسام الزاهي بوترزيزة الذي جاء مخضبّ الوجه واليدين بألوان كثيرة، وقال:

ـ لم أرَ مثل هذه الألوان في مكان آخر!

ـ لقد تغيّرت العلامات الآن! قال ريحان وهو يقفز مرحاً.

البحث عن القطّة

وزّع ريحان الاتّجاهات الستّة، بما فيها فوق الأشجار وتحت الأعشاب، على الأفراد الستّة في المجموعة، كي يفتّشوا عن صندوق القطّة.

ولم يطل بهم البحث حتّى لاح أبّة مجدّداً وهو يمشي مثل بطّة بين الأعشاب: كان يحمل صندوق القطّة.

هلّل الجميع مستبشرين بأبّة والقطّة. لكنهم لم يجدوا خنصر الحنّاء.

ـ اِطْمئنّوا، لا أحد يضيع هنا، قال ريحان، هيا نفتح الصندوق الآن، كي نطمئن على القطة.

مَاءَت القطة بأربعة أصوات، فأدخل ريحان أصابعه تحت غطاء الصندوق الخشبي، واقترب منه أبّة ليساعده. لكنّ الجندي الدواس قال «عندي سكّين!» وعندما أدخل يده، وبدأ يتحسس خصره، لم يجده.

التفت إليه ريحان مبتسماً وقال:

ـ الأسلحة لا تدخل المملكة! لكن عندما تعود سوف يُعاد إليك كلّ ما حُجز منك.

ـ ولكنْ، مَنْ أخذ سكّيني؟ اللَعنة! صاح الدوّاس مغتاظاً.

ـ اللّعنة سكّيني، علّق أبة ضاحكاً، لقد فتّشك الحرس الأزرق وحجزوا السكين.

ـ لم أصادف حارساً واحداً، ردّ الجندي الدوّاس.

ـ لا يمكن لِمَنْ يحرس أن يُرى! قال ريحان وهو يعود مع أبّة إلى محاولة رفع غطاء الصندوق الذي بدأت مساميره تتخلخل.

آسر يحس برغبة في البكاء

عندما فُتح الصندوق أخيراً، فوجىء الجميع، باستثناء ريحان وأبّة: هيكل عظمي، هو ما تبقّى من القطة الأمّ، وحوله أربع قطط صغيرة، ثلاث منها بيضاء، والرابعة سوداء. كانت القطيْطات تلحس عظام الأمّ.

ـ لا يمكن للصّغار أن يأكلوا أمّهم! صاح آسر مذهولاً.

ـ لم يأكلوها، قال ريحان، لقد أرضعتْهم حليبها ودمها، طيلة الرحلة، حتى لم يتبقَّ منها شيء.

ـ شيء منها، علّق أبّة، كانت رحلتنا طويلة بسبب فارق التوقيت.

ـ لكّننا لم نأكل شيئاً ولم نشعر بالجوع، علّق الموسيقار كعباشي الكراولي.

ـ وهل أَرْضَعْتَ أربع قطط، من زمن إلى زمن، حتى تجوع كالقطة؟ ردّ ريحان.

ـ في أيّ زمن نحن، يا ترى؟ تساءل الشاعر الأبرق كردوس.

ـ ترى يا نحن زمن، كّرر أبة، أنتَ لا تحسّ بالتبدّل كالقطط!

ـ كنّا نأتي بالقطط فتموت، أضاف ريحان.

ـ يا لها من مشكلة! علّق الرسام الزاهي بوترزيزة.

ـ هذا هو الحلّ الذي توصّل إليه مفكّر الامبراطورية، أوضح ريحان، أن يكون جَسَدُ الأمّ جسراً زمنيّاً، ومَعْبَراً لوصول صغارها إلينا.

ـ مِنْ حُسن حظّنا أن أمّهاتنا لم يلتحقن بنا! علّق الجندي الدوّاس غامزاً الجميع باتجاه آسر.

أحسّ آسر برغبة في البكاء، لكنّه تناساها وسأل:

ـ أين إصبع الحنّاء؟

الاستعداد لحفل الاستقبال

سار الجميع يتقدّمهم أبّة حاملاً صندوق القطيْطات الأربع وهي تموء في أذنيه فيتقلّص عنقه.

ـ رأيتُك تطير مثل اللّقلق! قال آسر.

ـ اللّقلق مثل تطير، ردّ أبة، طار ولم أطرْ فبقيت!

ـ ماذا تقول؟ سأله آسر محتاراً.

ـ تقول ماذا، كّرر أبّة، وإلاّ كيف ذهبنا لنأتيَ بكم؟

ـ لكننا جئنا في شاحنة الفحم!

ـ الفحم شاحنة! ردّ أبة ضاحكاً والقطيطات تموء.

تدخّل ريحان في حوارهما وقال:

ـ هل تسمّي الليل شاحنة فحم؟

احتار آسر أكثر، ولم يعد يعرف ما يقول.

بعد صمت قصير، التفت ريحان نحو أفراد المجموعة وقال بصوت عال:

ـ هيّا، يا أصدقاء! استعدّوا إلى حفل الاستقبال!

رقصة الألوان

كان آسر يتقدّم مع أصدقائه عندما رأى ركضاً في السماء. لم يسمع شيئاً غير أنه رأى كوكبة من ألوان تركض في أفق السماء مقبلةً نحوهم، صاح:

ـ ألوان! ألوان!

ـ سيأتي شعار المملكة، أوضح ريحان.

اقتربت الألوان منفصلةً ثم بدأت تتجمّع من هنا، ومن هنا، هكذا.. ثم هكذا... كلاّ، بل هكذا... اتصلت ببعضها البعض واقترنت في شكل دائرة متدرّجة الألوان من الأحمر إلى البنفسجيّ، مروراً بألوان الطّيف الأخرى.

تحوّلت الألوان إلى بيضة في السماء، بيضة كبيرة مُلوّنة.

امتلأ المكان بالأضواء والألوان.

قفز الرسام رافعاً أصابعه، فوقف شعر رأسه، وظلّ على تلك الهيئة، كأنه فرشاة.

وثب الموسيقار في الهواء وثبتيْن، وحاول ملامسة الألوان بقصبة طويلة كانت في يده.

توقف الشكل البيضوي الملوّن عن الحركة. وجاءت تدرّجات لونيّة أخرى فشرعت تأخذ مكانها إلى يمين البيضة وإلى يسارها.

تقدّم اللون الأسود مثل قائد فرقة موسيقية، وحرّك لُوَيْناً باتّجاه الألوان واللّوَيْنات الأخرى، فبدأت ترقص بإيقاع منتظم أمام البيضة الكبيرة، المزركشة بكلّ ما حضر من ألوان ولُوَيْنات.

رفع اللونُ الأسودُ ذلك اللّوُيْنَ المشتقَّ من اللّوينات الأخرى وأشار به إلى كلّ الألوان الحاضرة، فوقفت إلى يمين البيضة وإلى يسارها.

هدأت الألوان لحظة ثم بدأت البيضة الكبيرة تنشقّ في الوسط.

خرج منها طائرٌ عريض الريش، طويل الجناحين، مع ألوان زرقاء تَشُوبُها خُضرة.

كان الطائر مخطّط الصّدر مثل حمار وحشي، وله شبه لحية تحت عنقه.

حرّك اللّون الأسود عصا اللّوينات فاندفعت الألوان التي حوله وكتبتْ في الفضاء المزدحم بالألوان:

«مَرحَباً بالوَقْواق»

ـ هذا شعار مملكة الأخيضر، قال ريحان مبتهجاً.

أكبر يعسوب

انتبه آسر إلى أنّه لم يعد يتنفّس كعادته. صار يشرب الهواء كما يشرب السائل المنعش، ويلتهمه لاحساً أصابعه ثم شفتيه.

ولم يكد حفل الاستقبال ينتهي حتى تجمّعت الألوان مرة أخرى وبدأت تنسحب راكضة إلى الوراء.

ـ انظروا ماذا فعلوا بأصابعي!

كان ذلك صوت خنصر الحنّاء الذي أطلّ مفاجئاً الجميع إلا ريحان وأبّة. مدّ أصابعه فإذا كلّ إصبع من أصابعه ملوّنة بلون مختلف.

ـ مَنْ لَوَّنَ لك أصابعك؟ سأله آسر.

ـ أصابعك لك، علق أبّة.

ـ هجمتْ عليَّ الزهور، أجاب خنصر الحنّاء أو «أصابع الزهور» الآن!

ـ لا شكّ أنّ الزهور غارتْ من الحنّاء! قال الرّسام الزاهي بوترزيزة.

ـ فَوَشْوَشْنَ إلى بعضهنّ: «انظرْنَ ماذا تفعل صديقتنا الحنّاء ونحن جالسات هنا للنحل والفراشات!» أكمل الشاعر الأبرق كردوس.

ـ ولم يكترثن لخنصر الحنّاء عندما صاح بهنّ: «هيّا، اُتْرُكَنِني وشأني، الخمسة ما حّررش، وأنا أريد الالتحاق بأصدقائي!» أكمل الموسيقار كعباشي الكروالي.

رأى آسر أنه ينبغي المساهمة في هذه الحكاية التي تُوَقِّع خطواتهم، فأضاف:

ـ أمّا كوز الشوك الذي نسمّيه «البُكْ» فقد خاطب خنصر الحنّاء بصوت أجش وقال له: «لماذا أنت مستعجل؟ لم يظهر عليك ذلك عندما كنتَ تتسلّق أشجار المملكة باحثاً عن أعشاش الطيور!»

ولم يشارك الآخرون في بقيّة الحكاية السائرة بين الزهور والأعشاب، فأكملها الأبرق كردوس قائلاً:

ـ ثم بَدَا على زهرة أوركيديا، أو سحلبيّة، أنها أكثر الزهور تعلُّقاً بخنصر الحنّاء. فسألتْها جارتُها السَّوْسَنَة: «هل فتَنَكِ حبُّه؟» أجابت زهرة الأوركيديا التي لا تلقح إلا بمخادعة اليعاسيب: «إنه أكبر يعسوب رأيته في حياتي... يا أخواتي!»

حان وقت الفراق

ماذا ستكون نهاية هذا السَّيْر؟ أَتُرى بدأتِ المملكة، أم لم تبدأ بعد؟ إلى أين ذهبتْ تلك الألوان؟ هذه الأسئلة حيّرت آسر، فاقترب من ريحان وسأله:

ـ أين أسوار المملكة؟ لست أرى سوراً ولا باباً!

ـ ولكّننا اجتزنا الباب والأسوار!

ـ متى؟

ـ عندما رحّبت بنا الألوان وانشقّت بيضة الوقواق ثم انسحبت إلى الوراء.

ـ إلى أين ذهبت البيضة والألوان؟

ـ إلى حيث قوس قزح طبعاً!

ـ والآن، ماذا سنفعل؟

ـ الآن سنتفرّق!

ـ ماذا؟ سأله آسر مستغرباً، نحن لانعرف دروب المملكة!

ـ لا يمكن دخول المملكة جماعةً بعد تفرّق الألوان، ردّ ريحان.

ـ الألوان تفرّق، قال أبّة، إلاّ أنا، فمعي صندوق قطط!

ـ نعم، أكّد ريحان، صار أبّة هو قنطرة القطط إلى المملكة، بعد موت أمها.

وقبل أن يفترق أفراد المجموعة زَوَّدَهُمْ ريحان بالنصائح الأخيرة:

ـ إننا نفترق الآن حتّى نفسح المجال للمصادفات التي تحرّك الكثير من أحداث المملكة.

ـ المملكة أحداث، علّق أبّة.

ـ ولا تطلبوا شيئاً، أضاف ريحان، فكلّ شيء، هنا، يأتي وحده!

ـ وحده يأتي، كرّر أبّة.

ـ إلا إذا...

ـ إلا إذا...

ـ إلاّ إذا... ماذا؟ نطق الدوّاس أخيراً مقاطعاً ريحان.

ـ الأمر ليس خطيراً، أكمل ريحان موضّحاً، تستطيع في هذه المملكة أن تطلب كلّ ما تريد، وترى أنه يجعلك أنتَ أنتَ!

ـ أنا أنا؟

هل هي خيانة من ريحان؟

تشتَّتَ الأصدقاء في كلّ اتجاه «وهل يُعقل أن يتشتّت الأصدقاء؟ هذه خيانة منك يا ريحان!» قال آسر في صدره «يترك لقاءنا للمصادفات؟ ماذا سأفعل الآن؟ كيف أصل إلى الملك الأخيضر بلا دليل؟ أين أنتَ الآن يا ريحان؟»

سمع آسر صوتاً بعيداً يقول له: «هنا، كلّنا ريحان! لا تخفْ يا آسر» أنصتَ آسر إلى الصوت البعيد، وأرهف سمعه متسائلاً: «مَنْ هذا الذي يتكلّم؟ ومن أين يتكلّم؟» أجاب الصوت البعيد: «أنا ريحان مثلك، أتحدّث إليك من بطنك، لا تخفْ!»

سأله آسر: «وماذا تفعل في بطني؟» أجاب: «لماذا تقول: ماذا تفعل في بطني؟ هل قلتُ أنا: ماذا يفعل بطنك في صوتي؟»

سأله آسر مرّة أخرى: «وماذا أفعل الآن؟ إلى أين أذهب؟» أجابه الصوت: «تقدَّمْ ولا تسألْ، مادمتَ تتقدّم فأنت تسأل، فلماذا تتقدّم وتسأل؟»

قال آسر: «أسأل لأنني لا أعرف الطريق...» فردّ الصّوت: «سرْ حيث تسير، وسوف تجد نفسك في طريق مناسبة للمكان المناسب، لأن الطريق المناسبة للمكان المناسب هي التي أنتَ فيها، أو تسير إليها. ولو لم تكن هي الطريق المناسبة للمكان المناسب لما كنتَ فيها أو سرت إليها. تقدّم! ولا تخفْ!»

ـ يا لها من مملكة! قال آسر بصوت عال.

امرأة في الجدول

سار آسر في الطريق المناسبة للمكان المناسب إذاً! وعندما رأى ماءاً يلمع تحت أجنحة اليعاسيب المروحيّة، قال: «أذهبُ إليه!»

كان جدولاً صغيراً يجري ماؤه الفضّي على حصباء كقطع الذّهب.

نظر آسر في الماء فرأى امرأة... امرأة صغيرة، صغيرة، تتمايل بحذاء أحمر ذي كعب عالٍ فوق حصى الجدول. كانت تمشي تحت الماء ولا تغرق. وتتقدّم قافزة، أحياناً، عندما تخشى أن يَعْلَقَ كعب حذائها الأحمر بين حصباء الجدول.

انحنى آسر ومدّ يده كأنه يريد أن يرفع حافة الماء: أدخل إبهامه تحت الماء، وجعل السبّابة والوسطى فوق سطح الماء، كما يفعل الإنسان الذي يرفع غطاء ليطلّ على مَنْ تحته.

خرجت المرأة الصغيرة، طق، طق، على الحصى. كانت ترتدي فستاناً أحمر مجدولاً من لحم زهرة القطيفة.

سارت امرأة القطيفة حتّى بلغتْ قدميْ آسر. وهناك وضعتْ على الأرض باقةً من أعواد قصب، لا يعرف آسر اسمه. تناول آسر الباقة وقال: «لاشك أن اسم هذه الأغصان هو: قصب الأعماق الطريّ» سألها: «ماذا تفعلين بقصب الأعماق الطريّ؟» أجابت: «هذا جيّد لطبخ البيض!» سألها «وأين البيض؟» أجابت: «البيض؟ لابدّ أن يكذب أحدنا على الآخر حتّى نحصل على البيض!» ثم أشارت إلى باقة أخرى من قصب الأعماق الطريّ.

عندئذ تكلمّ قلب آسر وقال: «ما أجملها! إنني أحبّها!» وبدأ قلبه يقفز خارج القميص ولا يمزّق الأزرار: «هذه، يجب أن تبقى مع آسر» ابتسمتْ امرأة القطيفة الحمراء، فقال آسر: «سوف آخذها معي!»

الرسام الزّاهي بوترزيزة فوق شجرة جوز

ها هوذا الرسام الزّاهي بوترزيزة يمتلىء بالعلامات الجديدة، ويغيّر الأمكنة التي تجمّدت فيها العلامات.

صار الزاهي بوترزيزة يتناول ألواناً بكْراً، ويصبّها على علامات مدهشة، فيتوصل إلى مفاجآت لونيّة جديدة وعلامات ضوئية أجدّ.

يمسك الزاهي بوترزيزة بظلال هاربة بين شجرتين ويتمسّك بها قافزاً من ضوء إلى لون، ومن علامة إلى أخرى.

لا أحد يعرف ماذا يحدث للرسام الزاهي بوترزيزة.

إنّه يخوض مغامرات كثيرة مخضبّة بالألوان، قبل أن يصل إلى قصر الأخيضر؛ حوله الطيور مذهولة، والزواحف شاخصة.

من فوق شجرة الجوز، قفز الزاهي بوترزيزة نازلاً من غصن إلى غصن، حتى بلغ الأرض وقال: «لابدّ أن أرسم لوحةً تنظر إلى العين التي تراها».

قالت: الأمر ليس بهذه الخطورة يا عزيزي آسر!

هكذا إذاً....

قبل قرابة خمسين عاماً وقف طفل يُدعى جابر الطرودي على ضفّة نهرٍ، في قرية كاف الحجر. ونادى ريحان خادمَ مملكة الأخيضر، فجاءه مقلوباً.

وقال له: «أنا لست مقلوباً بل أراك تراني مقلوباً لأنّك ترى أني أرى صورتك مقلوبة في الماء!» ثم اعتذر عن البقاء قائلاً: «الملك الأخيضر يناديني، ويقول لك كُفَّ عن استدعائي!»...

... واليوم يصل ابنه آسر إلى مملكة الأخيضر، مع أنّه مايزال في أطرافها ولم يقابل الملك بعد: وها هوذا قلبه يخفق بالحبّ أيضاً!

ـ ما اسمكِ؟ سألها وهي تمشي تحت ركبته.

ـ اسمي رفيف الماء.

ـ لماذا هذا الاسم؟

ـ كنتُ أعيش في فقّاعة ماء، وناداني الهواء فخَرَجْت.

ـ كيف تخرج امرأة من فقاعة ماء، بفستان قطيفة وكعب عال؟

ـ ألا تصدّق أننا في مملكة الأخيضر؟ وما اسمك أنتَ؟

ـ اسمي آسر.

ـ حسبت أن اسمك نمير لذلك جئتك!

ارتبك آسر وخاف أن تتركه. لكنّها طمْأَنَتْه مبتسمة:

ـ هلاّ سمحت يا آسر وطوّقت خصري بذراعك حتّى نتمكّن من السير معاً، جنباً إلى جنب؟

ـ ولكنّك...

ـ آه فهمتُ! الأمر ليس لهذه الخطورة يا عزيزي آسر! تستطيع أن تطلب لي طولاً، فأطول كما تريد!

الجهات السبع

ترى ماذا يحدث الآن للجندي الدوّاس؟

وهل يمكن للحكاية أن تنسى جنديّاً هرب من الثكنة بسبب القطط، وتاه باحثاً عن جبهةٍ للقتال مع معاونه خنصر الحنّاء؟

عندما سقط الدوّاس في المنحدر الأزرق سكت كثيراً.

لقد أدرك أنّ هناك مَنْ جرَّده من أسلحته الحربية. والأسوأ من صنيعه ذاك أنه لم يرَهُ! فكيف ينازل عدوّاً لم يَرَهُ؟

خرج الجنديّ الدوّاس من تأمّلاته في أطراف المملكة وهو يردّد بينه وبين نفسه: «المهمّ أنّ خطَّتي الحربيّة في دماغي!»

وكان يتقدّم مستكملاً خطّتَه في دماغه، متأمّلاً عناصر الخطة بالتفصيل، عندما فاجأه ذلك الصوت الذي يأتي من البطن، في مملكة الأخيضر، ويبدو كأنه صوت بعيد.

قال الصوت البعيد للجندي الدوّاس:

ـ لماذا تتقدّم وتفكّر كثيراً في الجهة السابعة؟

ـ ههُ؟ من أنتَ؟ قفْ! وما هي الجهة السابعة؟

ـ وهل تعرف بقية الجهات الستّ حتى تسألني عن السابعة؟

ـ أعرف أربع جهات فقط، أجاب الجندي الدوّاس، مَنْ أنتَ؟

ـ أنا أُطِلُّ عليك من الجهة السابعة، مازالتْ بيننا جِهَتَان!

ـ وما هي الخامسة؟ حتى أقترب منك وأعرف؟

ـ هي فوق!

ـ والسادسة تحت، طبعاً، قال الجندي الدوّاس بسرعةِ بديهة، ها أنذا اقتربتُ منك، فأين تكون الجهة السابعة؟

ـ في الباطن، قال الصّوت، داخل مَنْ يفكّر فيها!

ـ ما أكثر جهاتكم في هذه المملكة، علّق الجندي الدوّاس، مع أنّكم لا تظهرون في جهة واحدة منها!

سرّ البيض في الجيوب!

طلب آسر، وهو في المملكة التي تُلبَّى فيها الطلبات بسهولة كما قال له ريحان، أن تصيرَ رفيف الماء في طوله تماماً، ثم تراجع مستدركاً:

ـ كلاّ، أريد أن تطولي حتّى أذُني!

ـ نعم! قالت رفيف الماء، وصارت طويلة حتّى أُذن آسر.

طوّق آسر خصرها بذارعه فوجد لجسمها نعومة قطيفة:

ـ سنتزوّج، أليس كذلك. أنتِ أوَّلُ مَنْ رَأيْتُ في هذه المملكة!

ابتسمتْ رفيف الماء وردَّت:

ـ إذاً، أنت تريد أكل البيض! ألم ترَ النَّهْر قبلي؟ وكذلك الحصى، والأشجار، وقصب الأعماق؟

ثم أخرجت رفيف الماء بيضة واحدة من جيبها، وتناولت غصناً من قصب الأعماق، قائلة:

ـ تعال نجلسْ على تلك الصخرة ونأكل البيض على حسابك!

ابتسم آسر وقال:

ـ لكنكِ أنتِ صاحبة البيضة!

ـ بل أنتَ صاحبُها، اعترضتْ رفيف الماء، في مملكتنا، كلّما كذب واحد على الثاني، وجد الثاني في جيوبه بيضاً بعدد الكذبات التي كذبها صديقُه في حقّه. لكنْ من حقّ الأول أن يأكل معه لأنّه شريكُهُ في إنتاج البيض.

ـ آه! تنهّد آسر، معنى هذا أنّ بلادنا لن تحتاج إلى المداجن أو استيراد البيض حتّى في شهر رمضان!

الخطّة تتضح

سار الجنديّ الدوّاس محاذياً ضفّة النّهر. أسرعتْ تطلّ عليه جماعات فضوليّة من الضفادع والقريدس واليعاسيب المروحيّة على امتداد النّهر.

كانت تتعجّب لهيئته الصّارمة، وخطواته الواثقة، فتتهامس في ما بينها «لعلّ هذا هو الماريشال!» لذلك تقدّمتْ وراءه، على ضفّة النهر، مثل عساكر من القوات الجوية والبرمائية.

كانت الحشرات الأخرى تطير فوقه، وترتطم به، فيزيحها بأصابعه، ثم يمدّ يده، ليكسر أشعة الضوء أمام عينيه متفحّصاً طبيعة المنطقة وتضاريسها الجبليّة.

وقف صفٌّ من حشرات الحباحب على كتفه اليمنى، وصفٌّ آخر على كتفه اليسرى. وتمسّكت جمهرة من اليعاسيب المِرْوَحيَّة بصدره مثل النّياشين. ثم جاء حنش الماء والتفّ حول عصا الجنديّ الدواس قبل أن يتجمّد هناك ويتيبّس إلى الأبد.

أحسّ الجنديّ الدوّاس بأن كلّ شيء حوله يرفع في رتبته العسكريّة ويقول له: «سرْ أيّها القائد الماريشال، نحن وراءك إلى الأبد!»

لذلك بدأتْ خطَّة الهجوم تتّضح.

يجب إعلان الحرب

صياح وضجيج، من هذه الجهة، بين الأشجار.

تطايرت اليعاسيب، وتقافزت الضفادع، وأسرع القريدس، وركضت السرطانات مائلة.

ـ الأعداء يهجمون!

ـ أنتَ تركب عصا! ردّ الدوّاس محتجّاً.

ـ صحيح؟ لكنّها لم تكنْ عصا قبل أن أراك.

ـ هيّا! سنبدأ بتنفيذ الخطّة!

ـ وما هي الخطة حتى ننفّذها؟

ـ سوف تعرفها في الوقت المناسب.

ـ الخمسة ما... لكنهم أخذوا ساعتي، قال خنصر الحنّاء غاضباً.

ـ لا يهمّ، ردّ الجندي الدوّاس، ألا تعرف الوقت دائماً؟

ـ الخمسة ما حررش، أجاب خنصر الحنّاء، يجب إعلان الحرب من أجل استرداد ساعتي.

أين يوجد الملك الأُخَيْضَر؟

آسر يضع يده على خصر رفيف ويسيران معاً.

رفيف الماء هي الشخص الثالث الذي عرفه آسر من مملكة الأخيضر. وهي بدَوْرها تتنفّس الهواء عبّاً مثل ريحان وأبّة. قالت: «ولماذا يوجد الهواء إذا لم يكن للأكل؟ لولا الهواء لما رأيت فقاعة واحدة في الماء، حتى الماء يأكل الهواء».

ما هي عاصمة المملكة يا ترى؟ لكن رفيف الماء لا تعرف هذه الكلمة أيضاً. من الأفضل أن يسألها هكذا: «أين يوجد الملك الأخيضر» تستطيع عندئذ أن تجيب بسهولة: «الملك الأخيضر يوجد في سرداب القصر الحلزوني» ما هذه المشكلة الجديدة؟ لماذا يحبّون السراديب؟ وهي حلزونية هذه المرة: «هل هو قصر على شكل حلزون؟ ولمذا يعيش الملك في السرداب ولا يعيش في حُجُرات القصر؟»

يا له من سؤال! كيف يتمكّن الملك الأخيضر من اللعب لَوْ سَكَن في أعلى القصر؟ «أنت لا تفهم جيّداً، قالت رفيف الماء، القصر طويل، طويل وشاهق، والملك يتعب في سُلّمه الحلزوني».

سألها آسر مرّة أخرى: «ومّنْ يسكن في الحجرات العالية؟» أجابت: «الألوان طبعاً، الألوان والأغاني والموسيقى والضيوف، مفكّر الامبراطورية أيضاً فوق القصر. سوف ترى القنطرة وكيف تمتدّ من أعلى شرفة في القصر الحلزوني إلى قمة جبل المصادفات، حيث توجد مغارة مفكّر الامبراطورية».

إلى هناك سيذهب آسر: «وهل نستطيع زيارته؟» مازال آسر يسأل! «لكن لماذا تسأل ما دمتَ تريد؟» قالت رفيف الماء والحيرة ترتسم على حاجبها الأيسر.

امرأة لا تلد في بيتها

ـ اُنظرْ! هذا تيس في السماء!

ـ إنّه ملوّن!

ـ ويخرج من بيضة في السماء أيضاً!

ـ لعلّ هذه، هي القوات الجوّية عندهم، قال الجندي الدواس.

كان ذلك شعار الإمارة التي بلغها الجنديان.

رأى الدوّاس امرأة تغادر بيتها مسرعة، ملتفتة نحو اليمين ونحو اليسار. أشار بعصاه في اتّجاهها فتقدّمتْ نحوهما.

ـ إلى أين أنتِ هاربة هكذا؟ سألها الدواس.

ـ فاجأني الطّلق، أجابت المرأة، سألد قريباً.

ـ وأين تلدين؟ سألها الدواس.

ـ في البيت الذي رصدْتُه.

ـ ألا تلدين في بيتك؟ سألها خنصر الحنّاء.

ـ لا تلد المرأة عندنا إلا في بيت آخر.

ـ وهل تبقى هناك مع ابنها؟ سألها الدوّاس.

ـ كلا، أجابت المرأة، تترك ابنها للآخرين كي يربّوه، ثم تعود إلى بيتها وتمكث فيه حذرة.

ـ ولِمَ الحذر؟ سألها الدواس.

ـ حتّى لا تأتي إمرأة أخرى وتلد في بيتها، أجابت المرأة.

ـ وإذا جئتُ أنا إلى بيتك؟ سألها الجندي الدواس.

ـ أضع الطفل هناك ثم أعود إليك، أجابت المرأة.

أغنية رفيف الماء

اقترب آسر ورفيف الماء من ألوان جديدة تتراقص. كانت كلّها ألواناً باهتة. لا وجود للون القطيفة الأحمر، لولا وجود رفيف الماء، ولا وجود حتّى للون الأصفر، لولا وجود قميص آسر.

انحنتْ رفيف الماء والتقطت حجراً صغيراً. قرّبته من أذنها وقالت: «هذا الحجر في بطنه ماء! هل تريد سماع البقبقة؟» تناول آسر الحجر الصغير وسمع حركة الماء في داخل. قالت رفيف الماء: «هذا الماء لا يحتاج إلى هواء لأنه لا يرى» سكتتْ قليلاً ثم أضافت: «أمّا نحن فنرى؛ عندما ننام نسلّف عيوننا للعميان؛ لذلك يرون من الداخل» سألها آسر: «وماذا يرون من الداخل؟» أجابت: «أمام الأعمى

مملكتان: الأولى أمام عينيه، لكنها، هي التي تراه. والثانية وراء عينيه، وهو يأخذ إليها ما يريد، ويراها. لذلك نعطيه عيوننا عندما ننام».

بعد ذلك شرعتْ رفيف الماء تغنّي. فتشرق أغنيتها، تلمع، تذوب، ثم تسيل، وتصل إلى أسنان آسر:

من ماء النهْرِ

إلى ريقي،

يعسوب الزّهرِ

صديقي.

امرأة مضيئة

وجد الدوّاس في بيت المرأة، امرأةً أخرى مضيئة. كانت تنتظر:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ أنتظر وأراقب، أجابت المرأة المضيئة.

ـ ولماذا أراك تضيئين؟

ـ لكي تراني!

ـ وما اسم بلادكم العجيبة هذه؟

ـ هذه قرية التيس المضيء.

أمّا إصبع الحناء فقد التفت في جميع الاتجاهات ثم سأل المرأة المضيئة:

ـ هل توجد امرأة أخرى هنا؟

ـ أمامك امرأة أخرى، أجابت المرأة المضيئة، أما أنا فموجودة في المطيخ.

لم يُكمل إصبع الحنّاء كلامه. أسرع إلى المطبخ فلم يجد امرأة أخرى. قال: «سأشرب قليلاً من الماء». فتح الحنفيّة فخرجت منها قطرة ماء. وبدأت تكبر وتنتفخ. تشكّلت قدماها ثم ساقاها ثم... حتى اكتمل رأسها؛ وبيدين تطوّقان وجهها، قفزت المرأة من حوض الماء وقالت:

ـ انتظرني حتّى أجفَّ!

تسلّى خنصر الحنّاء بفتح خزانة المطبخ، فخرجت منها امرأة أخرى وقالت:

ـ انتظرني حتّى أنفض الطّحين!

تحرّك خنصر الحنّاء كثيراً وهو حائر، فامتلأت غرف البيت بالنساء...

كشبور الهارب من الدّود

دخل آسر ورفيف الماء مَمَرّاً صخريّاً بين جبلين. دنت منهما ألوان رماديّة راقصة «هذه، ترقص وحدها!» علّقت رفيف الماء.

عندما بلغا آخر الممّر الصخري، تقدّم طفل صغير نحوهما ويداه ممدودتان أمامه. قالت رفيف الماء:

ـ انتبهْ! هذا كشبور! لا تكلّمه ولا تلمسه!

اقترب الطفل فاستغرب آسر ملامحه. كان يبدو شيخاً هرماً على الرغم من صغر حجمه. قالت رفيف الماء:

ـ لو كلّمتَه لحدَّثَكَ عن الدود!

ـ أريد! قال آسر.

ـ كلِّمْه إذاً، مادمتَ تريد.

ـ يا كشبور... يا كشبور!

ـ لن يسمعك هكذا، علّقت رفيف الماء.

ـ ماذا أفعل إذاً؟

ـ ينبغي أن تفعل هكذا... أجابت رفيف الماء وهي تقترب من كشبور ثم تصيح في أذنه: يا كشبووووووورررر!

انتفض كشبور وقال محتجّاً:

ـ لماذا أيقظتني؟ انظري الدود! أنا مثقوب هنا، وهنا، وهنا. لابدّ أن أنتظر أكثر.

ـ وماذا تنتظر؟ سأله آسر.

ـ أنتظر خروج الدّود من نومي، أجاب كشبور.

الدّنيا كلّها تدور!

حاول إصبع الحنّاء أن يغلق أصابعه فانضمّت كلّها إلى بعضها، إلا إصبعه السادسة!

حاول أن يطويها بيده اليمنى فلم يستطع، وبيديه الاثنتين فلم يستطع.

صارت له عشر أصابع، يمكن أن يحرّكها كما يشاء، وإصبع سادسة، بين الخمستيْن، تظلّ منتصبة مهما فعل.

ركّز إصبع الحناء على إصبعه السادسة فأحسّ بالدنيا كلها، تدور حول إصبعه السادسةَ.

قرّر إصبع الحناء أن يهرب من قرية التيس قبل أن تنتصب أصابعه الأخرى فيُعفى من المشاركة في الحرب.

أما الجندي الدوّاس فقد هرب من قرية التيس، هو الآخر، لكن في اتجاه مختلف.

لقد سأل الدوّاس عن الطّعام فأجابت النساء بأنهنّ لا يطبخن. وعندما سألهنّ: «كيف تَعِشْنَ إذاً؟» أجابت المرأة المضيئة: «نحن نأكل الذكور!» هرب الجنديّ الدوّاس من قرية التّيس قبل أن يشتدّ الجوع على النساء، ويبدأْنَ بالتهامه من إصبعه السادسة...

الخائفون

ازدادت الألوان الرمادية المتدرّجة وتكثّفت. اقتربت من آسر ورفيف الماء مقبلة من الأفق، ثم بدأت رقصة الاستقبال.

فقّست بيضة الألوان الرمادية. خرج منها جرذ رماديّ واقف على قائمتيه الخلفيّتين، وبين قائمتيه الأماميتين حبّة جوز رمادية.

رقصت درجات اللّون الرماديّ، ثم انتهى حفل الاستقبال، فانسحبت راكضة مع الجرذ.

همْس... وشوشة... صمت. لكنْ، هناك بهلول يسير على حافة الجدار، عائلة تجتمع حول مائدة ولا تأكل، رجل يكلّم شجرة...

ـ اُنظرْ إلى ذاك، قالت رفيف الماء، إنه يسبح بلا ملابس، وهذا يتسلّق سلّماً وَهْمِياً، انتبه! انتبهْ! هذا الذي يدنو منّا يظنّ نفسه أسداً...

ـ ماذا أصابهم؟ سألها آسر.

ـ هذه قرية المسرنمين! أجابت رفيف الماء.

ـ آه! إنهم السائرون في نومهم! أبّة حدثني عنهم، قال آسر، لماذا ينامون كلّهم واقفين؟

ـ يخافون أن تأتيهم الجرذان وهم نائمون. مفكر الامبراطورية لم يجد حلاًّ لمشكلة الجرذان. وبعد انعقاد مؤتمر السائرين في نومهم قرّر أن يأتي بحامل الفخاخ، لكن حامل الفخاخ لم يَصْطَدْ إلا نفسه.

ـ كيف؟

ـ لقد روّض الجرذان وتزعّمها، وهو الذي صمّم فكرة الشعار. يريد أن يدرّب الجرذان على حفر أروقة كبيرة تحت الأرض حتى يسرق النفط من تحت الصحراء.

ـ آه! كشبور من هذه القرية؟ سألها آسر.

ـ كشبور عضّه جرذ أعمى فصار يحسّ بأنه مثقوب وفيه دود.

ـ يسير نائماً مثلهم...

ـ نعم، لكنه يخاف من الجرذ، ومن طائر الوقواق أيضاً.

ـ لماذا يخاف من الواقوق أيضاً؟

ـ إذا رآه الوقواق محشوّاً بالدّود، ماذا تظنّه سيفعل؟

ألا تعرفون الألفة في هذه المملكة

اشتكى آسر إلى رفيف الماء من سلوك صديقه بوشويشة. قال لها إنّ اسمه الحقيقي ريحان، وقد تركه وحيداً وذهب.

ـ من حقّه أن يذهب، ردَّتْ رفيف الماء، أنا أيضاً يمكنني الذهاب إذا دعاني الواجب إلى ذلك. والواجب الأوّل هو أن أتركك للاكتشاف!

ـ ألا تعرفون الألفة في هذه المملكة؟

ـ وأين المشكلة، مادمتَ قادراً على طلب مَنْ تريد رؤيته؟

ـ لقد ناديتُ ريحان ولم يأت.

ـ كيف، لم يأت؟

ـ كلّمني من بطني فقط!

ـ معنى ذلك أنه جاء، ولو لم يفعلْ لَما كنتُ بجانبك الآن.

ـ وهل تكونين ريحان أنتِ أيضاً؟

ـ عندما يكون ريحان مشغولاً بالقطط الصغيرة، وبتدوين رحلته في الدفتر الكبير، أكون أنا ريحان. لِمَ لا أكون أنا ريحان؟

ـ وما هو الدفتر الكبير؟

ـ الدفتر الذي يدوّن فيه كلّ واحد شهادته عن الأحداث.

ـ وهل أستطيع الكتابة في الدفتر، أنا أيضاً؟

ـ تستطيع طبعاً ما دمتَ تريد. أليس لديك الكثير ممّا ترويه وتدوّنه في الدفتر؟

ـ نعم...

ـ سوف يفرح مفكّر الامبراطورية بذلك، قالت رفيف الماء.

لكنّها اختفت فجأة!

الأبرق كردوس والعجوز

آه! أخيراً!

ها هوذا الشاعر الأبرق كردوس.

لقد ظلّ يسير، هو الآخر، من مصادفة إلى أخرى، فيختار كلمة ويردّدها حتى تفسد فيتركها.
وجد عجوزاً تسكن بمفردها في قرية مهجورة. وما إن رأته حتّى صاحتْ: «النّجدة! النجدة! الشَّرِسُون يهجمون!»
تركها الشاعر الأبرق كردوس، وغادر قريتها المهجورة مردّداً:
يا عجوزْ
هل يجوز
أفترسْ؟
هل أنا وحشٌ شَرِسْ؟

ذبابة الفطر

ظلّ آسر وحيداً يحدّث رفيف الماء في بطنه. قالت له: «أنا أيضاً معك، وسوف أعود في الوقت المناسب». كان على وشك الخروج من قرية السائرين في نومهم عندما شاهد كشبور يسير في الطريق رافعاً يديه باتجاهه.
دنا آسر من كشبور وصاح في أذنه تلك الصيحة. فبدأ كشبور:
ـ لم يبدأ شيء في العالم. النّار لم تشتعل بعد. النجوم نائمة. حتّى الجرذان لم تأت من الطين بعد. أنا ضوء في ظلام في ضوء في ظلام في ضوء في دوائر في جبال في ظلام في دوائر في ظلام...
ـ كشبوووووووووررر! صاح آسر في أذنه مرّة أخرى.
ـ أنا سَاسِيدُومِيَا...
ـ ماذا؟
ـ أختبىء في بطن أمّي حتى لا يأكلني الجرذ مرّة أخرى، آكل أمّي من داخلها فلا يبقى إلاّ الجلد. أنا ساسيدوميا... أنا ذبابة الفطر.
ـ أنت تكبر من دون أن تفرّق بين اللّيل والنهار، قال آسر.
ـ لكنني أقرأ الدفتر الكبير فأعرف ما يجري.
ـ متى تقرأ الدفتر، وأنت نائم دائماً؟
ـ أقرأ الدفتر عندما أخرج من قريتي.
ـ ـ فهل تخرج منها الآن، وتذهب معي؟
ـ أخرج منها الآن وأذهب معك.
ـ بشرط ألا تعود إلى النوم وأنت تمشي معي.

ـ إذاً، عليك أن تصرخ في أذني دائماً ولا تتوقف عن الكلام.

ـ اتّفقنا.

دهليز الألوان هو السبب

آسر يتكلّم بصوت عال، ويحدّث كشبور عن كل شيء، كلّ شيء، وفي أذنه أيضاً: المهمّ ألا يعود كشبور إلى النوم!

في الطريق ناداهما صوت من بعيد:

ـ هايْ! هناك! ألستَ آسر؟

ـ إصبع الحنّاء! أنتَ أيضاً هنا؟

ـ ومن هذا الشيخ الذي معك؟

ـ هذا ليس شيخاً، هذا كشبور! كبُر بسرعة بسبب الجرذان!

ـ الخمسة ما حررش... ولم أجد الدوّاس! قال خنصر الحناء وهو يقترب.

ـ لماذا صرتَ ملوّناً؟ سأله آسر.

ـ الزّهور لم تعد تتركني. اكتشفتْ أنني قابل للصّبغ! لا حديث لها، هذه الأيام، إلاّ عمّا تستطيع أن تفعله الحنّاء!

ـ صار لونك خليطاً عجيباً!

ـ دهليز الألوان هو السبب، وجدتُ الرسام الزاهي بوترزيزة هناك...

ـ الزاهي بوترزيزة هناك؟ وماذا يفعل؟

ـ يجرّب الألوان ويدهن كلّ شيء، لو رأيت شكله وألوانه! إلى أين أنت ذاهب برفقة ذلك الشيخ؟

ـ قلتُ لك إنه ليس شيخاً، هذا كشبور، سنذهب إلى الدفتر الكبير.

ـ لا أحبّ القراءة، ردّ الجندي ذو خنصر الحنّاء والألوان الأخرى.

ـ لكّنا سنزور الملك الأخيضر! قال آسر، وعلامات الفرح على وجهه.

ـ فلأذهبْ معكما إذاً... قال إصبع الحنّاء.

الدوّاس سيتزوّج...

ابتعد الثلاثة عن قرية السائرين في نومهم فاستيقظ كشبور تماماً، ولم تعد هناك حاجة إلى الصراخ في أذنه، بل أظهر انتعاشاً كبيراً، ويقظة مفاجئة بالأخبار إذْ سأله خنصر الحنّاء:

ـ أنت أيضاً تريد الزواج؟

ـ ومن الذي أخبرك؟ سأله إصبع الحنّاء.

ـ صديقك الدوّاس سيتزوّج امرأة من الحُبَاحب.

ـ ما هي الحباحب؟ سأله آسر.

ـ دودة الضوء، أجاب كشبور.

ـ وهل يمكن لجندي مثل الدوّاس أن يتزوّج دودة؟ سأله خنصر الحناء.

ـ وهل يمكن لدودة أن تتزوج جنديّاً؟ أضاف آسر.

ـ عندما يرى الدودة امرأة، وتراه دودة، يتزوّجان ما يَرَيَان.

ـ ما هذا؟ سأله آسر ضاحكاً.

ـ ماذا تقول؟ أضاف إصبع الحنّاء.

ـ يأتي الثالث دائماً من ارتباك اثنين، أجاب كشبور.

ـ لم أفهم شيئاً، ردّ خنصر الحنّاء.

ـ سوف تفهم عندما تلتقي ديدحان.

ـ ومن هو هذا الدّيدحان؟ سأله خنصر الحنّاء.

ـ هل نسيت؟ إنه مفكّر الامبراطورية، أجاب آسر.

ـ لن أفهم شيئاً من كبيرهم إذا كان صغيرهم يتكلّم هكذا!

ـ إذاً، عليك أن تتزوّج، ردَّ كشبور.

قرية الأشباح

هاهي ذي الألوان تتقدّم وتستقبل الرّفاق الثلاثة؛ آسر وكشبور وخنصر الحنّاء، مرّة أخرى. لكن البيضة انشطرت وخرج منها غراب.

تقدّم الأصدقاء نحو القرية الجديدة، فارتفع منها صوت امرأة تغنّي.

ـ أين هي؟ تساءل خنصر الحنّاء مضطرباً.

ـ إهدأْ! لن تراها! ردّ كشبور.

همست المرأة:

ـ أَسْرِعْ! الدوّاس في خطر!

لكن خنصر الحنّاء لم ير أحداً. جاءت فراشة وحطّت على شعره.

ـ ذهب الناس وبقيتْ أصواتهم، قال كشبور.

ـ هل يعيشون، من عصور مختلفة، في مكان واحد؟ تساءل خنصر الحنّاء، كيف يتفاهمون؟

طارت الفراشة وحطّت على كتفه.

ـ في أيّ عمر يُبعث الميت؟ تساءل إصبع الحنّاء.

اقترب صوت آخر من آسر وقال هامساً:

ـ لا تهمّنا أشياء كثيرة كالعُلَب، والأُكَر، والصناديق المضيئة.

وجد الرفاق الثلاثة سيفاً مثلوماً وخوذة وجمجمة.

ـ هذه كلّها من عالم قديم، علّق كشبور.

اقتربوا من بئر، على حافة الطريق، فصاح كشبور محذّراً صديقيْه:

ـ لا تذهَبا إليها إنها بئر ماكرة، تُزَوْبِع وتمتصّ ضحاياها!

بدأت أجراس غير مرئية تقرع، فسأل آسر صديقه كشبور عمّن يقرعها.

ـ الأرواح التي تراقبنا، أجاب كشبور.

ـ لكننا لا نرى ما يدلّ عليها، قال خنصر الحنّاء.

ـ الموتى ليست لهم ظلال، أجاب آسر.

ـ يُعلنون عن ثلاثة أشباح تمرّ بالقرية!

قرية الزمن السكران

ـ اقتربنا الآن من قرية الزمن السكران، قال كشبور، ولن يستقبلنا أحد.

ـ لماذا تُسمَّى قرية الزمن السكران؟ سأله آسر.

ـ ولماذا لا يستقبلنا فيها أحد؟ سأله خنصر الحنّاء.

ـ لا يعرفون إنْ كنّا جئنا بالأمس، أو نأتي اليوم أو غداً... هيّا، بسرعة، اُرْكضَا ورائي!

ركض آسر وخنصر الحنّاء وراء كشبور متسائليْن: «لماذا الركض يا ترى؟» قال كشبور وهو يعبّ الهواء:

ـ هنا تكونُ كلَّ الناس ولا تكون أحداً، هوذا المسرب الوحيد الذي يضمن لنا الذهاب باتجاه الغد، وليس باتجاه الأمس، أو البقاء في المتاهة.

ـ هذا شيء جميل! قال خنصر الحنّاء، وسوف أعود وحدي وأسافر إلى كل العصور.

ـ تعود مخبولاً، ردّ كشبور.

ـ لماذا؟

ـ لأن كلّ زمن يريد الإمساك بك كي ينعكس فيك.

على جانبي المسرب السّري رأى آسر ذيل ديناصور، وقرصاناً أعور، وامرأة تنادي ابنها. سمع جنوداً يصيحون «اللّه أكبر!» ثم لمح دبّابة توجّه مدفعها نحو صحون طائرة. هنا أصوت مختلطة... سيارة تطير... ألف شيء لا يعرفه.

خرجوا سالمين من هذه القرية بفضل حكمة كشبور.

التفتوا إلى صوت طفل يركض وراءهم ويكّرر «أَأَبْ...أَأَبْ...»

ـ انتظروني! أنا تويتُو! ضعتُ في المستقبل! أأبْ!

ـ آه أنتَ تويتو! صاح كشبور، هل نسيتَ المسرب حتّى تضيع؟

ـ في البداية لم أتعرّفْ على مَنْ معك، قال تويتو، فحسبتكم من زمن آخر ينبغي الهروب منه أيضاً. أأبْ!

ـ هل دُخْتَ كثيراً؟ سأله كشبور.

ـ اللعنة! أجاب تويتو، مرّة أكبُر، مرّة أصغرُ، مرة أموت، مرة أولد... لم أتقدم إلا متخبّطاً... أأب!

تأثير الزمن السكران في تويتو

لم تنته دوخة تويتو عند ذلك الحدّ.

خرج الأصدقاء الأربعة من قرية الزمن السكران، وفي الطريق جلسوا يستريحون تحت شجرة خرّوب كبيرة. لكنّ تويتو ظلّ يمشي في اتجاهين؛ مرّة إلى الأمام، ومرّة إلى الوراء، بل ومرّة إلى اليمين، وأخرى إلى اليسار، أيضاً.

ـ تعالوا نُمسكْ به! صاح كشبور.

وقفوا أمامه، في ثلاثة اتجاهات، فهرب من الاتجاه الرابع.

ـ ما الحلّ؟ سأل إصبع الحنّاء.

ـ ليكُن جذع شجرة الخروب هو الاتجاه الرابع، اقترح آسر.

ـ هذه فكرة رائعة! قال كشبور.

توزّع الأصدقاء الثلاث، وقد صاروا أربعة بفضل شجرة الخرّوب، على الاتّجاهات الأربعة، وحاصروها. وهكذا سيطروا على تويتو.

ـ هيّا! عليك أن تنام قليلاً حتى تستريح! أمره كشبور.

استرخى الجميع تحت شجرة الخروّب. غير أن تويتو نام بعين واحدة. وما هي إلاّ لحظات حتى استغرقوا في نوم عميق... إلا تويتو.

فجأة دوّت صرخة عالية في نومهم فاستيقظوا مذعورين.

ـ آي! آي! ركبتي! تويتو عضّني من ركبتي، صاح خنصر الحناء.

قرى في جميع الاتجاهات

قال كشبور وهو يتوسّط آسر وخنصر الحنّاء وتويتو:

ـ في هذا الاتجاه، على اليمين، توجد قرية الوحشة، أصحابها يقولون: لا حاجة إلى البحث أو السؤال، فهناك دائماً مّنْ يبحث عنّا. وعلى اليسار توجد قرية اسمها «عدد السكان صفْر».

ـ أيْ القرية الخالية؟ سأله خنصر الحنّاء.

ـ ليست خالية تماماً، فيها حاكم، وحرّاس، وأطبّاء، ونجّارون، وحدّادون... لكنّهم لا يجدون من يعتنون بهم أو يعملون من أجلهم. وكلّ ضيف يحلّ بهم، يستقبلونه استقبالاً لا نظير له، ويعتنون به كما اعتنت قرية الزمن السكران بتويتو!

ـ أأبْ! قال تويتو.

ـ هم يحكمون الفراغ إذاً، علّق خنصر الحنّاء.

ـ علينا السّير في هذه الاتجاه، قال كشبور مشيراً إلى الشمال، ثم ننعرج إلى الشمال الغربي.

ـ ولماذا لا نواصل باتجاه الشمال؟ سأله إصبع الحناء.

ـ في الشمال توجد قرية البَكّائين.

ـ والشمال الشرقي؟

ـ في الشمال الشرقي توجد قرية المقلّدين.

ـ أيكون شعارها القرد أم الببغاء؟

ـ شعاراتها تتعارك، أجاب كشبور، كلّ شعار يقلّد الشعار الآخر، القرد يقلّد الغراب، والغراب يقلّد الحرباء،و الحرباء تقلّد الفراشة، والفراشة تقلّد الزّهرة، أو الورقة، والورقة تقلّد الفراشة ثم تَلْتَهِمُها، فتكتشف أنها ليست فراشة بل ورقة مثلها قَلَّدَت فراشة... وهكذا تأكل الورقة أختها الورقة...

ـ وهل يوجد فيها سكّان؟

ـ أيضاً يقلّدون بعضهم بعضاً، وإذا رأونا سوف يقلدوننا في كلّ شيء حتّى ننسى مَنْ هُمْ نحن، ومن الذين ليسوا نحن، ونُصاب بدوخة تويتو!

ـ أأبْ! قال تويتو، فلنذهب إلى الشمال الغربي حيث قرية الأميرة ننجال.

أين الموسيقار كعباشي الكراولي؟

يصعب على آسر أن يعرف ماذا يحصل الآن للموسيقار كعباشي الكراولي؟ لذلك سأل كشبور وتويتو:

ـ مازال صديق واحد، لم أعرفْ أيّ خبر عنه، قال آسر.

ـ مَنْ هو؟ سأله كشبور.

ـ الموسيقار كعباشي الكراولي.

سكت كشبور برهة ثم أجاب:

ـ صمت... هدوء... فجأة: قرية الرعود

تدخّل تويتو وأضاف:

ـ صمت ... هدوء... فجأة: قرية الولادة، أأبْ!

عاد كشبور إلى الإيقاع نفسه:

ـ صمت ... هدوء... فجأة: قريةالأفراح!

وأكمل تويتو:

ـ صمت ... هدوء... فجأة: قرية الصمت! أأبْ!

ملّ خنصر الحنّاء من هذا الايقاع وقال:

ـ يالها من قرى تحتاج إلى تنظيم!

ـ كيف؟ سأله آسر.

ـ لابدّ من توحيدها! أجاب خنصر الحنّاء.

ـ لماذا؟

ـ لكي يعرف المرء أين يوجد على الأقلّ!

تدخّل كشبور قائلاً:

ـ علينا الآن أن نلتفتَ إلى الوراء ونسيرَ إلى الأمام!

الأميرة ننجال تطلّ من الشرفة

أطلّت الأميرة ننجال متثائبة من شرفة قصرها فاحتشد الناس أمام القصر واقفين على رؤوسهم. ولو كانت الأميرة على رأسها، لوقَفَ الشعب على أقدامه.

ردَّدَ الشعب في الساحة:

ها هي ذي الأميرةْ

واقفة ما بينَنَا

محلولة الضفيرةْ

يا وَيْلَنا يا ويْلنَا

من سحابة رماديّة حطّ شعاع على الأميرة؛ يريد أن يضفر جديلتها. ومن سحابة أخرى، ورديّة، أتى طائر الوقواق، ؛ يريد قلاده الأميرة.

في الليلة التي سبقت وقوف الأميرة على الشرفة وتخلّي الشعب عن أغنيته القديمة، حلمتْ ننجال بأبيها يموت مرة أخرى. استدعت المنجّم فقال لها «لا أحد يموت مرتين، وأبوك لم يمت مرة واحدة» بعد ذلك ساعدَتْها وصيفتها في الذهاب إلى الشرفة واقفة على قدميها.

لذلك تطيّر الناس وأنشدوا أغنية خائفة.

قالت الأميرة مخاطبة جمهور الشعب المقلوب بصوت تخنقه الدموع:

ـ مات أبي في الحلم أيها الثّعب (الشعب).

فهلل الشعب فرحاً.

أمام دهشة آسر وإصبع الحنّاء المقلوبيْن بدورهما خوفاً من إثارة انتباه الحراس وغضب الشعب، قال كشبور موضّحاً:

ـ الناس هنا يمشون بعكس ما تريده الحياة... آي!

ـ لماذا؟ سأله آسر.

ـ لا أستطيع الكلام أكثر، وأنا في هذا الوضع! ردّ كشبور.

ـ حتّى عندما نتكلم عن المقلوبين لا نستطيع قلب كلّ شيء ابتداء من أأبْ! الكلام، لأنّ قلب... أأبْ... الكلام... آه... يؤدي... رأسي... إلى انغلاق الفهم، أضاف تويتو، وهو يتألم من وقوفه على جلدة رأسه.

ـ سوف نحكي لكما كلّ شيء عن الأميرة ننجال... آه... رأسي... بعد انتهاء الاحتفال، قال كشبور.

كشبور يروي حكاية الأميرة نِنْجَال(1)

في قرية الأميرة ننجال يتوجّب على الآباء أن يذهبوا إلى المدرسة كي يدرّسهم الأبناء. فيعاقب الأطفال آباءهم «اكتبْ مائة مرّة: لن أعود إلى الضحك وقت الدرس» ويبكي الجدّ لأنّ أحفاده يمنعونه من اللعب بالتراب.

أمّا الأميرة ننجال فهي مدلّلة المملكة التي تقول كلّ شيء لشعبها. لذلك تحكم البلاد وتخطب في الناس قائلة «يا ثعبي ـ أي ياشعبي ـ اِبْكِ معي لأنني بكيت عندما رأيت أبي يموت في المنام» عندئذ يكون

على الشعب أن يتحمّل ألمه في الساحة، كما رَأَيْتُمَا اليوم، وينشد أغانيَ مرحة، بينما يقف الأطفال في الصّفوف الأمامية جادّين، على رؤوسهم، وخلفهم الآباء والأجداد يستمعون ويعلّقون. وإذا عطس أب تقول له ابنته في الصفوف الأمامية: «هس!»

ولاشك أنكما لاَحَظْتُما على أطراف الساحة، وجود آباء وأمهات يلعبون الغميضة هناك، بعيداً عن أنظار الحراس، وقد انتهزوا مناسبة الاحتفال.

وما أصعب المشي في قرية المقلوبين! فالجميع يسيرون إلى الوراء. قالت الأميرة: «مادام الزمن يثير (يسير) إلى الأمام، أي باتجاه المتقبل (المستقبل)، عليكم بالمثي (المشي) إلى الوراء» وهذه الفتوى أثارت بلبلة في مجلس الأعيان الصغار: أيَسِيرُ الزّمَنُ إلى الأمام أم إلى الوراء؟ نِصْفُ المجلس قال: «الزمن يمشي إلى الأمام والدليل على ذلك أننا نتّجه نحو المستقبل» والنصف الثاني اعترض على هذا الرأي بالقول: «إن الزمن يسير إلى الوراء، والدليل على ذلك أن كلّ شيء يأتي ثم يغيب، يحيا ثم يموت... الخ» فردّ عليهم خصومهم قائلين: «كيفَ تقولون إن كلّ شيء يأتي ثم يغيب، والحال أنه يغيب ثم يأتي، مثل الشمس!»

ولم تنته هذه المعركة إلا بتدخّل حاسم من الأميرة ننجال التي قالت:

ـ أنا أفضّلُ الرأي الأوّل، لأنّه أمر يثّليني (يسلّيني) أنا أشاهد ثعبي من الثّرفة يَثير (أشاهد شعبي من الشرفة يسير) إلى الوراء!

حكاية الأميرة نِنْجَال (2)

تراقب الأميرة ننجال كلّ شيء من الشرفة ـ هل انتَبهْتُمَا إلى عينيها المدهشتين؟ ـ لها عينان تسيلان تحديقاً من الشرفة، وتفاجئان الناس في فنجان القهوة، أو في صحن الحساء، وتقطران من الحنفيّة في كوب ماء.

وعندما يتساءل الناس عن زياراتها غير المتوقّعة تقول: «جئت أُحثي مكاثب» (أحصي مكاسب) هذه الأمة الرائعة. هذه الأمة التي تتمتّع بأميرة، وثماء، (وسماء) وتراب، وماء...»

لكن أسوأ الأيام هو ذلك اليوم الذي تُقرّر فيه التخلّي عن الحكم سبع ساعات يوميّاً، لمدّة سبعة أيام: عندئذ تسود فوضى جديدة اسمها النظام، ويعود الأهل والمعلّمون إلى ضرب الصغار، فيتذكّرون الأميرة ويحبّونها أكثر.

وبعد مرور الساعات السبع، تجتمع الأميرة ننجال بوزرائها، ويأتي قاضي القضاة، في فمه مصّاصة؛ تُصدر الأميرة الحكم ويقول قاضي القضاة: «كغْ!» موافقاً.

يأتي شعب الأطفال ويشكو من انقلاب السبع ساعات، الذي استغلّه الآباء والأمهات، لتذكيرهم بأن الحياة تسير، وتكبر إلى الأمام.

يقول أحد الأطفال في الساحة، مخاطباً الأميرة والقاضي، في الشرفة:

ـ أبي أراد أن يأكلني!

تردّ الأميرة:

ـ اِبلعْ مثامير! «مسامير!»

ـ كغ! يصيح القاضي موافقاً.

ـ أريد أن أبيع البلاد! يقول طفل آخر.

ـ بِعْهَا، لكن من دون غشّ (غش) تنصحه الأميرة.

ويوافق قاضي القضاة بتوقيعه المعتاد «كغْ!» فيتقدم طفل آخر ويقول:

ـ أريد أن ألعب مع قاضي القضاة!

فتردّ الأميرة محتجّة هذه المرّة:

ـ هذا القاضي لي أنا، اذهبْ واِئْتَرِ (واشْتَرِ) لك قاضياً آخر.

حكاية الأميرة ننجال(3)

أما في ما يخصّ تسيير شؤون الإمارة، وبسبب فوضى الساعات السبع التي لا تحكم فيها الأميرة، وفوضى ما تبقّى من الساعات التي تحكم فيها الأميرة، يقضي رئيس الوزراء تسعة وتسعين بالمائة من وقته في فَكّ الفخاخ عبر الدروب والطرقات، وحتى في سرير نومه. ويهرب وزير الرياضة ليلعب بالكرة وحده، والشعب كلّه يتفرّج عليه.

ويلاحق وزير الثقافة الحشرات والسّوس والأَرَضَة التي تلتهم كتب الإمارة، فيصطادها مستعيناً بالمجهر، وهو متمدّد على بطنه، ثم يجمعها ويصنّفها، ويحتفظ بها في وزارته.

أما وزير الاقتصاد في قرية المقلوبين، فهو يقتصد كثيراً بطبعه، وخاصة في الحساب. لذلك يُفضّل الاكتفاء بصفْر في الميزانية حتى لا يُتعبه الحساب لاحقاً.

وعندما تشح الأمطار، وتخفّ مياه الينابيع، يجهّز وزير النقل فخاخه ضدّ وزير الريّ حتى يهرب بجرار الماء.

وثمة وزراء كثيرون في حكومة الأميرة ننجال...

غير أنّ أمام كلّ وزير مهمّتين إضافيتيْن تُعَّدان من اختصاصه:

أوّلاً، أنْ ينصب فخّاً، كلّ أربع وعشرين ساعة، في طريق رئيس الوزراء.

ثانياً، أن يُحضر، كلّ ليلة، هديّة للأميرة ننجال، تكون مطبوعة باختصاص وزارته.

وأنهى كشبور حكايته قائلاً:

ـ مِنْ تجارة الفخاخ صار حامل الفخاخ ملكاً.

وتدخّل تويتو معلّقاً:

ـ لكنها حكاية ينبغي أن تُحكى مقلوبة، وتُسمع من آخرها! أأبْ!

ـ ما العمل؟ تساءل كشبور، من سَيَفْهَمُها آنذاك؟

ـ ملكاً الفخاخ حامل... الحكاية تحتاج إلى أبّة! قال آسر.

الأهوال التي رآها الدوّاس

سعى الجندي الدوّاس إلى تجنيد المزيد من القوات الحليفة، فمرّ بقرية الحشرات التي ينزلق فيها كلّ شيء ويقزقز، بينما يخرج الناس حبوبهم وينشرونها في الشمس.

ومرّ الدواس بقرية العنز وهي قرية لم تبق منها إلا صورة معسكر في صحراء؛ خرجت إليه عنز ذهبية، وطلبت منه أن يقبّلها ثلاث مرات في جبينها لتنقاد إليه. لكن الدواس، في المرة الثالثة، وجد نفسه يُقَبّل مؤخّرة تيس. قالت العنز: «وَقَعْتَ في الفخّ! » وذابت كما يذوب فصّ ملح في الماء، أو سراب ماء في الصحراء.

ظلّ الدوّاس يلاحق السراب باحثاً عن العنز الذهبية فمرّ بقرية الجائعين الذين قالوا له، أينما حلّ: «الحرب أتت بالجراد، والجراد أتى بالجفاف، والجفاف قضى على الجراد الذي كنّا نأكله؛ متى تنتهي الحرب، أيها الجنديّ؟»

أكل السكان آخر حمار أعجف في القرية. ودخل الأطفال إلى جلده باحثين عن آخر المواضع الطريّة التي لا ينافسهم عليها الذباب.

وسمع الدوّاس شيخاً ينهر امرأةً، مات صغارها جوعاً، ويقول لها: «كلّنا سنموت، فلماذا تبكين بهذه اللهفة؟» فما كان من الأمّ إلاّ أن رَمَتْه بعظْم ابنها الميت.

تابع الدوّاس طريقَهُ، فرأى من كوارث الدنيا ما لم يشاهده من قبل؛ رأى نساء يَوَلْوِلْنَ، ورجالاً يبكون، وأطفالاً غائري العيون، يخرجون من ذهولهم، ويهجمون عليه بجماجم قديمة، وهم يصرخون وراءه.

قال الدوّاس بعد رؤيته لتلك المشاهد المرّة:

ـ سحقاً للأعداء! لابّد من إعلان الحرب من أجل تغيير هذا العالم! فلنَبْدَأْ بحامل الفخاخ!

هل هناك طريقة للطيران؟

ـ يا لها من مملكة جميلة! قال آسر، لكنني أحلم دائماً بالطيران مثل العصافير، ألا يطير أحدٌ هنا؟

ـ هذا أيضاً ممكن! أجاب كشبور.

ـ كيف أطير إذاً؟ سأله إصبع الحنّاء.

ـ يكفي أن تكفّ عن كونك أنتَ، وتطير إذا استطعتَ.

ـ لا أرى أن هذا يكفي، ردّ إصبع الحنّاء.

ـ الصعوبة ليست هنا، تدخّل تويتو موضّحاً، أَأَبْ!

ـ اُكْتُبْ اسمَكَ على جناح حمامة، قال كشبور.

ـ عندئذٍ يطير اسمي ويبقى جسمي، ردّ خنصر الحنّاء.

ـ وما رَأْي مفكّر الامبراطورية؟ سأل آسر.

ـ طيران الإنسان ينمُّ عن قلق وهروب من الذات، أجاب كشبور.

ـ هذه حكمة، لكن هل هناك طريقة للطيران؟ سأله إصبع الحناء.

ـ نعم، أجاب تويتو، هناك طريقة معقّدة. ينبغي أن تسرق بيضة وقواق. والوقواق لا يبيض إلا في عش غيره. إذاً، عليك أن تسرق بيضته وبيضة غيره.. أأبْ!

ـ لماذا؟ سأله إصبع الحنّاء.

ـ لكي تضع بيضة الوقواق سبع ليال تحت ضوء القمر، وتضع بيضة الطائر المخدوع سبعة أيام تحت أشعة الشمس... أَأَبْ!

ـ وبعد ذلك؟

ـ تخفق البيضتين، وتطلي بهما جسمك، ثم تلحس الصّحن! أَأَبْ!

ـ وهكذا تطير سبعة أيام بلياليهما! أضاف كشبور.

ـ سبعة أيام فقط؟ سأله آسر.

ـ الصعوبة ليست هنا، أجاب كشبور، الصعوبة في كيفيّة الحصول على البيضتين معاً.

لم يكد كشبور وتويتو ينتهيان من الكلام حتّى وجد كلٌّ من آسر وخنصر الحنّاء بيضتين في جيبيهما.

ـ أَأَبْ! هذا البيض للغداء، وليس للطيران! علّق تويتو ضاحكاً.

الدوّاس أيضاً يسأل عن سرّ الطيران

وصل الجندي الدوّاس إلى منبع نهر، تقوده عصاه التي تجمّد عليها ثعبان الماء.

حامت فوقه اليعاسيب والفراشات وآلاف الأنواع؛ من البرغش الذي لا يكاد يُرى، إلى برغش الماء.

وحوله تقافزت الضفادع والجنادب والسرطانات...

ـ ألا يخرج عاقل من الماء؟ تساءل الدوّاس ساخطاً.

عندئذ قفز ضفدع معمّر خارج الماء وحطّ على صخرة.

ـ هل أنت العاقل الوحيد؟ سأله الدوّاس.

هزّ الضفدع برأسه.

ـ ما قيمة عقلك إذاً، أيها الضفدع، مادمتَ قد وُلدْتَ ضفدعاً، وبقيتَ ضفدعاً كلّ هذا العمر، لتموت ضفدعاً؟

رفع الضفدع يده وحكّ رأسه.

ـ ما قيمة رأسك، إذا لم تتوصّل به إلى الطيران مثل هؤلاء، قال الدواس مخاطباً الضفدع العجوز وهو يشير إلى الحشرات الطائرة، ثم أضاف: ينبغي على المرء أن يجد سرَّ الطيران في هذه البلدان!

ظهور رفيف الماء واختفاؤها

كانت رفيف الماء تمر مسرعة تحت ماء النهر، فلَفَتَ انتباهَهَا هذا الاجتماعُ المفاجئ. وما إن خرجتْ من الماء حتى حام حولها البعوض.

ـ انضباط! أمر الجندي الدواس.

ـ أنتَ أيضاً تسأل عن الطيران؟ سألَتْه رفيف الماء وهي تطرد البعوض؟

ـ وهل أنت جنّيّة الماء؟

ـ أنا رفيف الماء.

ـ أرى أنك بَرْمائيّة، أنتِ أيضا، هل تعرفين كيف يطير المرء في هذه البلدان؟

ـ قبل أن أجيب، أسألك أنا، قالت رفيف الماء.

ـ اسألي لنرى...

ـ كنتَ طفلاً صغيراً؟ أليس كذلك؟

ـ طبعاً.

ـ هل كانوا يحبّونك؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ هل رفعوك بالأيدي، وقذفوا بك في الهواء: هوب! هوب! ثمّ تلقّوك بالأيدي: هوب! هوب!

ـ لاشك أن هناك من فعل ذلك!

ـ إذاً، عليكَ الآن أن تنسى تلك الأيدي حتى تبقى «الهوب»!

ـ ولكن ذلك مستحيل! ردّ الدواس.

ـ ليس مستحيلاً، عليك أن تبدأ من الطفولة وتنسى الأيدي التي تلقَّفَتْكَ.

ـ وهل من المعقول أن يعود المرء إلى الطفولة ليسقط الآن؟ سألها ساخراً.

ـ هذا يتوقف عليك! قالت رفيف الماء وهي تعود إلى الجدول هامسةً في سرّها: «هذا أول جندي أراه في حياتي وأُطعِمُه بيضاً، لكنّه مع الأسف جنديّ مجنون».

وهناك، فوق تلك الصخرة، كان ذلك الضفدع الهرم يحدّث نفسه معلّقاً على ما حدث: «وهل يتحقق المجد في العالم من دون جندي مجنون؟».

أما الدوّاس فقد أفاق من ذهوله متأخّراً وحك رأسه متسائلاً:

ـ أين اختفت تلك المرأة البرمائية؟

ثم التفت نحو حشود القشريّات والزواحف والضفادع سائلاً:

ـ مَنْ مِنْكُنَّ باضت في جيبي؟

الجندي الدّوّاس يلقي خطاب الحرب

ركل الدّوّاس الضفدع الهرم فوثب إلى الماء. وقف الجندي على صخرة الضفدع وبدأ يتكلم بصوت عال:

ـ إليكم الآن عناصر الخطّة الحربيّة لتغيير العالم: أوّلاً، لاحظنا أنّ كلّ القرى في هذه المملكة تتظاهر برغبة في السلام والوحدة والوئام، بينما نجدها تسعى عمليّاً إلى توسيع الخطاب القرويّ من خلال تزويق الشعار الفتّان، وتضخيم بيضة الزعيم عبر استعباد الألوان؛ ثانياً لاحظنا تفشي ظاهرة الكذب لتفسير كلّ ما هو محال، من أجل تقاسم البيض بواسطة الاحتيال؛ ثالثاً، وجدنا حتماً أن البيضة المناسبة لا تنشقُّ عن رجل مناسب، وأن الجميع يغيرون أسماءهم ويموّهون الوقائع الفعلية كما تفعل العنز الذهبية والمرأة الحباحب...»

سكت الجندي الدوّاس ملتقطاً أنفاسه، طارداً زوابع البعوض والنّحل والذباب، ثم أضاف:

ـ لذلك كلّه؛ وضعنا خطتنا الحربية التي تهدف، في مرحلتها الأوّلية، إلى عملين بارزين: أوّلاً، البدء بقرية الجرذان واكتسابها لصالحنا، بعد طرد الغازي، مغتصب السلطة المُدَان، أعني حامل الفخاخ البادئ بالعدوان؛ ثانيا، حَفْر أكبر نفق في العالم، في قرية الزمن السكران، بمساعدة حلفائنا الجرذان، من أجل ربط الماضي العتيد، بالحاضر العنيد، والتوجّه إلى مستقبل مجيد، وذلك بالقضاء نهائيّاً، وبمهارة، على تخبّط الأزمنة الثلاثة في هذه الإمارة.

هذا العمل الجادّ يتطلب التّفاني والدقّة، ويتضمّن إرسال فرقة انتحارية وثقى من قبيلة الجرذان، إلى قرية الزمن السكران، ومحاولة ترويض طائر الرخّ وإخراجه من قمقم الزمان، مهما كانت المشقة، ولن نتوصل إلى ترويضه إلاّ إذا اصطدم به الحاضر في أحد الأزقّة. وهكذا فقط ننجح في تطويع الرخّ لأعمالنا الجوّية.

هذه إذاً، هي المرحلة الأوّلية، من خطتنا الحربيّة، وسوف نوضّح في الوقت المناسب، ما تبقى من مراحل هجومية، يمليها علينا الواجب».

استقبلت الحشرات والزواحف واليَرَقَات خطاب الجندي الدوّاس بالطنين والرّنين والحركات البهلوانية. وعندما قفز الجندي من الصخرة،قفزة صغيرة، ليسير قدماً نحو الهدف الأوّل، عاد الضفدع الهرم ليتشمّس على صخرته.

تويتو يخدع إصبع الحنّاء

كان إصبع الحنّاء نائماً تحت شجرة تفّاح وهو يحرّك شفتيه مبتسماً في قيلولته عندما هجم عليه تويتو مرّة أخرى، وعضّ الجزء المخضّب بالحنّاء عند أسفل الخنصر قائلاً:

ـ هذه لي، أخيراً، أأبْ!

استيقظ إصبع الحناء مفزوعاً من حلمه وركض وراء تويتو متوعّداً:

ـ إمّا أنا... وإمّا أنت...

وابتعد الاثنان راكضيْن بين الأشجار والأعشاب والزهور، بينما الزواحف والحشرات والطيور تهرب مذهولة من الركض المتعرّج والصراخ المتقطع.

بعد قليل لاح تويتو يقبل وحيداً، ويمشي ببطء، وكأنه لا يخشى أيّ ظهور مفاجئ لخنصر الحنّاء.

وعندما اقترب من آسر وكشبور، سأله آسر مستغرباً:

ـ أين إصبع الحنّاء؟

أجاب تويتو ضاحكاً:

ـ أأبْ! رأيته يركض وراء جرذ، ويصيح: تعال هنا يا تويتو... إمّا أنا، وإمّا أنت يا تويتو... سأمسك بك يا تويتو...

ـ لابدّ أنك هَيَّأْتَ له حيلة حتّى خيّل إليه أن الجرذ هو أنت، لاحظ آسر متسائلاً، ماذا فعلت؟

ـ لم أفعل شيئاً، أجاب تويتو، اختبأتُ وراء جذعٍ مثقوب فخرج منه الجرذ...

ـ فهمتُ! تريد أن تأكل معي البيض! قال آسر وهو يتحسّس جيوبه.

ـ لاشك أن الجرذ سوف يستدرجه إلى قرية الجرذان، علّق كشبور وقد ارتجف جسمه من ذكر اسم الجرذان.

بدء تنفيذ الخطة

تقدّم الجندي الدوّاس في موكب الطنين والرنين. وبدأ يتفحّص الصخور والجذوع والحُفر باحثاً عن جرذ واحد يكون دليلَهُ إلى قرية الجرذان.

ولم يطل بحثه وانتظاره...

شاهد صديقه خنصر الحنّاء يأتي راكضاً وراء جرذ وهو يصيح:

ـ لن تهرب منّي يا تويتو... إمّا أنا وإمَّا أنتَ يا تويتو...

اقترب صوت خنصر الحناء الذي رأى صديقه الدواس:

ـ امسكْ يا دواس، امسكْ!

أسرع الدواس صوب الجرذ وداسه بقدمه، ثم رفع قدمه عنه وأمسك به من عنقه قائلاً:

ـ اسمعْ أيها الجرذ، مازالتْ أمامك فرصة للحياة، مطلوب منك أن تعمل معنا من أجل غزو قلعة الجرذان من الداخل. وأؤكد لك أننا لا ننوي بك شرّاً، ولا بعائلة الجرذان. هدفنا هو إسقاط المحتال حامل الفخاخ من السلطة.

ـ لكنّه ليس جرذاً، علّق خنصر الحنّاء معترضاً، هذا تويتو!

ـ ليكن اسمه تويتو إنْ شئتَ، ردّ الجندي الدوّاس، سوف نحوّله إلى قط من دون أن يعلم!

ـ ماذا ستفعل به الآن؟ سأله خنصر الحنّاء.

ـ اللعنة! أين وضعتُ الإبرة؟ ها هي ذي! قال الدوّاس مبتسماً، لقد ظنّ الحرس الأخضر أن الإبرة ليست سلاحاً... ها... ها... ها...

ـ ماذا ستفعل بالإبرة؟ سأله خنصر الحناء.

ـ الآن بدأ تنفيذ الخطّة، قال الجندي الدواس، تعال ساعدني حتى نخيط مؤخرة الجرذ!

ضغط خنصر الحناء على جنبي الجرذ بيديه، ووجّه مؤخّرته نحو إبرة الدواس، فإذا الجرذ جرذ حقيقي...

تقاسم المهام العسكرية

كلّف الجندي الدوّاس رفيقه خنصر الحنّاء بمهمّة التوجيه المعنوي للجيش، وتفرّغ هو للقيادة وتنفيذ مراحل الخطة الحربية.

وكان على إصبع الحناء أن يتأمل حوله كثيراً من أجل التوصّل إلى إعداد معنوي جيّد للجيش. فرأى أن دروس التكوين المعنوي تشمل تطوير الحيل التي تتميّز بها القوات الجوية والبرية والمائية، وكذلك القوات البرمائية مثل الضفادع والقريدس والسلطعون.

اعتمد خنصر الحنّاء، على ضبّاط صفّ من خيرة الجيوش الثلاثة. وشكّل طليعة قواته الخاصة، في الهجوم المعنوي والتّعبوي، من فرقة مروحيات الهيليكوبتر، وهي يعاسيب الماء الملوّنة التي تتميّز بقدرتها على الطيران الثابت، والدوران حول نفسها، ثم التحليق، والمطاردة، فالانعطاف السريع، والمفاجئ من أجل الانقضاض على بعوضة أو ذبابة.

أما جنّيات البرّ، الحُبَاحب المضيئة، فهي تتميّز بطيران ذكورها، وإرسال إناثها لوميض بارد، مُخْضَوْضِر، في الليل، تنادي به ذكورها؛ غير أنها تتمتّع بقدرات احتيال أخرى، تتمثل في لجوئها، ولاسيما العجائز منها، إلى بث إشارات كاذبة، لغير جنسها من الذكور، حتى تفترسهم.

واستفاد خنصر الحنّاء من أنثى الوقواق التي تبيض في عش غيرها من الطيور، ثم تترك فرخها يطرد غيره من الأبناء الشرعيين. كما استفاد من العنكبوت صانع الفخاخ الصامت، من الحرباء المتلوّنة، وزهرة السحلبيّة، والحيّة المرجانية ذات السمّ القاتل...

اطّلع إصبع الحنّاء على كل تلك الأسرار، لكنه ظلّ حائراً: كيف ترى يستفيد منها ضد الأعداء؟ وعندما طرح هذا السؤال على الجندي الدواس:

ـ كلّ ذلك لايعنيني الآن، أجاب الدواس، مطلوب منك الآن أن تستعدّ لرحلتك نحو قرية الزمن السكران.

ـ لماذا؟ سأله خنصر الحنّاء.

ـ ستتولّى أنت مهمّة القبض على الرخّ!

ثورة القوارض

أكل الجرذ حتى شبع. لكنّ مؤخّرته مخيطة. عاد إلى الأكل. لكن مؤخرته مخيطة. هاج الجرذ في قريته وبدأ ينقضّ على الجرذان الأخرى ويبقر بطونها. صارت تخشى قوته الجنونية المتأتية من حالته العصبيّة.

بعد ساعات أطلّ جرذ آخر مخيط... ثم آخر...ثم آخر...

دارت الجرذان المخيطة، مدفوعة بقوة لا تُدرك، عبر القرية كلها، وهاجمت جرذاناً نائمة وأخرى تسنّ قوارضها على الخشب، حتى وصلت إلى الجرذان المختارة التي تحرس حامل الفخاخ.

عمّت الفوضى وانْهَارَ عدد كبير من الجرذان وتوتّرت الذكور فهجمت على بعضها البعض. وما لبثت أن اندفعت نحو بيت حامل الفخاخ.

كانت المعركة بين الجرذان المهاجمة وجرذان الحرس الخاص، غير متكافئة.

هجمت الجرذان تقرض الشِّباك والفخاخ والأقفاص، تمزّق أذناب الخيول وجلود الزواحف والحيوانات المملوءة بالقش.

لكنّ حامل الفخاخ استطاع الهرب من قصره سالماً، بفضل السرداب السّري الذي حفره له حرسه الخاص، أيام السِّلْم.

أسرع حامل الفخاخ هارباً إلى قصر الملك الأخيضر ليطلب الأمان، وهو ما يعرف باسم اللجوء السياسي.

الجرذان الأربعة

قال الجندي الدّواس وهو يراقب سير المعركة من أعلى الجبل:

ـ نجحت الخطّة! ستهجم الجرذان الآن على قصر الملك متعقّبة رائحة حامل الفخاخ، وهكذا نستولي على السلطة!

سأله خنصر الحنّاء:

ـ هل يتحالف حامل الفخاخ مع الملك، من أجل استرجاع سلطته؟

ـ لا أهمية لحامل الفخاخ الآن، أجابه الدواس، لم تعد له قيمة من دون فخاخ وجرذان.

التهمت الجرذان كلّ شيء في القرية. ولّما لم تجد شيئاً آخر، غادرت القرية في جيش جرّار نحو قصر الملك الأخيضر.

عندئذ رفع الجندي الدوّاس عصاه باتجاه القرية وقال:

ـ هيّا بنا إلى القرية حتّى نعاين الأمور عن كثب!

ونزل الجندي الدواس مستعيناً بعصاه، المزركشة بثعبان الماء المتجمّد، بينما رفيقه خنصر الحناء يتدحرج على السفح ساحباً وراءه سيولاً من الحصى والتراب.

لم يجد الجنديان جرذاً واحداً في شوارع القرية.

وعندما دخلا قصر حامل الفخاخ، وجدَا أربعة جرذان فقط.

كانت الجرذان الأربعة تتعلّق حول زجاجة نبيذ: يُدخل أحدها ذنبه في الزجاجة ثم يخرجه، فتلحسه الجرذان الأخرى، وهكذا دواليك...

هَأْ... هِيءْ... شربت الجرذان نصف الزجاجة لحساً ومصّاً، وخرجت من القصر، ثم غادرت القرية مترنّحة.

ـ في كلّ الحروب هناك طُفيليّون مستفيدون، قال الدوّاس، ونحن ينبغي أن نستفيد من المستفيدين أيضاً.

ـ ماذا تعني؟ سأله خنصر الحنّاء.

ـ أعني الجرذان السكرانة طبعاً!

وراء الجرذان، نحو قرية الزمن السكران

نصّب الجندي الدواس نفسه برتبة القائد الأعلى للقوات المسلّحة وحامل الفخاخ الأوّل، في انتظار إخضاع المملكة كلها. وعيّن رفيقه خنصر الحنّاء وزيراً للدفاع، ونائباً أول، مكلّفاً بالتوجيه المعنوي للقوات البرية والجوية والمائية... والبرمائية.

وخلال حفل التنصيب الذي حضرته جماهير الزواحف والبرغش، خطب الدوّاس خطبة قصيرة، قال فيها بالخصوص:

ـ ... وكان خصمنا الجبان، حامل الفخاخ سابقاً وطالب اللجوء لاحقاً، قد تحالف مع الجرذان، متناسياً الوظيفة الحقيقية لفخاخه المخزية. فبات يتاجر بها صبحاً ومساءً لإسقاط الوزراء...

وبعد الاحتفال سحب خنصر الحنّاء من يده وقال له:

ـ والآن، سأرافقك إلى قرية الزمن السكران، أعرف أنك تخاف، وحدك.

ـ لم يحن الوقت بعد، اعترض خنصر الحنّاء.

ـ ومن أدراك بالوقت؟

ـ الخمسة ما حررش، أجاب خنصر الحنّاء مرتجفاً.

ـ هيّا! أسرعْ قبل أن تضيع الفرصة! صاح الدواس.

ـ أية فرصة؟

ـ الجرذان السّكرانة هي دليلنا إلى قرية الزمن السكران... أسرعْ! علينا أن نضيع في أروقة الزمن حتى نصطدم بالزمن القديم فنمسك بالرّخ، ثم نعود.

ـ وكيف نعود؟ سأله خنصر الحناء.

ـ نعود، عندما نصطدم مرّة أخرى بالحاضر، فنخرج من الماضي السحيق على ظهر الرخّ الطائر.

ـ الخمسة ما حررش...

ـ أسرعْ قبل اختفاء الجرذان السكرانة، هيّا بنا...

أمام قصر الملك الأخيضر

وصل آسر، بصحبة كشبور وتويتو، إلى شلاّلات مائية. كانت الأرض حولها خضراء وبرشاء، مبرقشة بالزهور والصخور. الأسماك تقفز في الماء، والطيور تحلّق ثم تنقضّ عليها من السماء. قطيع كبير من الماعز الجبلي. شلالات من كلّ الاتجاهات. جيوش من القريدس والسلطعون. بحيرات صقيلة بلون الفيروز. نقوش قديمة على مداخل الكهوف.

ـ اقتربنا من قصر الملك الأخيضر، قال كشبور.

أحاط بهم صَفّ من القريدس على اليمين، وصَفّ من السلطعون على اليسار وبدأ الزحف الأعرج نحو القصر.

ـ هنا يلعب الملك أيام الأعياد، قال كشبور.

ـ وهل سنبقى نسير هكذا بين صفّين؟ سأله آسر.

ـ نعم! أجاب كشبور.

ـ أأبْ! أضاف تويتو، بعد قليل تتركنا البرمائيات وتأتي الألوان.

ـ انتَبِهَا! صاح كشبور، بدأ حفل الاستقبال.

هجمت الألوان قادمة من الأفق وهي تدفع بأكبر بيضة رآها آسر حتى الآن. وقفت الألوان إلى يمين البيضة وإلى يسارها، وبإشارة من قائد الألوان الأسود، بدأت ألوان اليمين تقلّد حركات القريدس، وألوان اليسار تقلّد حركات السلطعون. وما لبثت أن تسلّقت بعضها بعضاً، وهي ترقص.

انشقّت البيضة الكبيرة وخرج منها شعار المملكة كلّها:

ـ طفل يلعب! هتف آسر.

ـ نعم! أكّد كشبور.

ـ أأبْ! ذاك هو الملك! أضاف تويتو.

الهدايا!

تلألأ قصر الأخيضر عندما نزلت الألوان وافترشت الأرض وانطلق شَدْو الطيور وعزف الزيزان.

كان الملك شيخاً بمظهر طفل، أو طفلاً بملامح شيخ. تهيأ لاستقبال الضيوف، بل الضيف ومرافقيْه الاثنين، قافزاً على قدميه الصغيرتين، رافعاً يديه في الهواء.

دنا منه آسر وكشبور وتويتو، فسبق سؤالُه سلامَهُ:

ـ أين الهدايا؟

ارتبك آسر لأنّه لم يأت بهدية للملك، فلكزه كشبور في خاصرته، وهمس في أذنه بكلمات غير مسموعة. انفرجتْ أسارير آسر، وبدأ يجهّز هديته للملك.

تقدّم كشبور أوّلاً وقال:

ـ يا ملكَ الفصول، يا خامِسَها الجميل: هل تعرف ما الذي يمشي طوال عمره فلا يسمع ولا يقول، وإذا دخل الماء، يخرج منه غير مبلول؟

حكّ الملك الأخيضر رأسه، لمعت عيناه، ثم أجاب قافزاً:

ـ الظلّ! الظلّ!

رقصت الألوان وعزفت الزيزان.

ثم تقدّم تويتو وسأل الملك.

ـ أأبْ! يا ملكاً أغلى من الفضّة والذهبْ: كرتي فيها سبعة ثقبْ؟

حك الملك الأخيضر رأسه. أنزل يده. نظر إلى أصابعه. لمس عينيه. لمس أذنيه. لمس منخريه، وهو يتمتم ويفكّر، لمس فمه. وأجاب قافزاً:

ـ الرأس! الرأس فيه سبعة ثقب!

رقصت الألوان وعزفت الزيزان.

ـ وها هي هدية الضيف؟ سأل الملك.

تقدّم آسر من الملك وقال:

ـ يا ملك العباد، يا ساكن الفؤاد: ما الخيط الذي بلا أوتاد وفي الليل يربط البلاد؟

حك الملك الأخيضر كلّ شيء في جسمه ثم بدأ يحك وزراءه. لكنه لم يتوصل إلى حل اللغز. سكت محتاراً ثم خاطب آسر متلهّفاً لمعرفة الحلّ:

ـ إذا أخبرتَني بالحلّ، سمّيتُك أميراً عليه!

ـ النوم، قال آسر، النوم يقيّد كلّ الناس بلا حبال!

ـ سمّيتُك أميرَ النوم، قال الملك.

رقصت الألوان حول آسر، وضفرت تاجاً على رأسه. وعزفت الزيزان تحيّة للأمير الجديد.

الحرس الأزرق أعلم الملك الأخيضر بالأحداث كلّها

اعتذر الملك لآسر عن تواضع الاستقبال بسبب استعداد المملكة لمواجهة الأعداء. وأخبره بأن حامل الفخاخ يوجد في القصر، بعد أن هرب من إمارته.

ـ ولماذا سمحتَ له بتلك الإمارة، ثم باللجوء إلى قصرك؟ سأله آسر.

ـ له حِيَل مدهشة في القبض على الجرذان، أجاب الملك، وكما توَّجْتُك أميراً على النوم، توّجتُه أميراً على الجرذان، لأن لغزه كان عن الجرذان. ولم أستطع الإجابة، يوم مجيئه، بالرغم من تهديد الجرذان للملكة.

ـ لكنّه لم يقتل الجرذان بَلْ صادقها! علّق آسر بنبرة لَوْم.

ـ عندما عيّنته أميراً، وعدني بتدجين الجرذان. لقد أعجبتني مهارته في صنع الفخاخ المتنوّعة: فخاخ للجرذان، فخاخ للقنافذ، فخاخ لبنات آوى وبنات عرس...

ـ وأين هو حامل الفخاخ الآن؟

ـ إنه في الطابق العلوي المخصّص للضيوف.

ـ وماذا حكى عن الجرذان؟

ـ قال إنها تتقدّم نحونا بعد أن أهاجها الجنديّ الدوّاس ومساعده، فخرجتْ من حالة التدجين إلى حالتها الأولى.

ـ وهل تعرف أين يوجد الجنديان، الآن؟

ـ أخبرني الحرس الأزرق بأنهما قصدَا قرية الزمن السكران لترويض الرخّ.

ـ وهل يستطيعان العودة بسرعة؟

ـ هذا يتوقف على الصدمة...

ـ أية صدمة؟

ـ ينبغي أن تصطدم عصور بدهور، في أروقة الزمن السكران. وإذا نجحت المعادلة التي حدّثني عنها مفكر الامبراطورية، يخرجان...

ـ وما هي هذه المعادلة؟ سأله آسر.

ـ معادلة الذهاب إلى زمن الرخّ، والعودة من ذلك الزمان السحيق إلى زمننا الحاضر، في لحظة تدفُّقه، وليس قبل قليل أو بعد قليل، لأنهما بذلك قد يظلاّن وراءنا دائماً بفارق ساعة، أو أمامنا دائماً بفارق دقيقة، ولن نلتقي أبداً!

مفاجآت أخرى تنتظر آسر

دخل آسر القصر بصحبة الملك والوزراء والأمراء. وسأل عن صديقه ريحان. فأخبره الملك بأنه في غرفة التدوين يسجّل في الدفتر الكبير وقائع ما رأى وسمع، في رحلته الأخيرة. ثم وضع الملك يده على كتف آسر وقال:

ـ سنخصّص لك مدّوناً يسجّل وقائع زيارتك إلى مملكتنا.

داخل القصر، رأى آسر ضفادع تقفز وسرطانات تمشي مائلة. رأى... نعم! رأى كلْبَهُ تانغو! ميكي ماوس، السيارات الصغيرة، سيارة الشرطة، سيارة الإطفائية بسُلَّمِهَا الأصفر... الكرة، المصباح اليدوي، الرمح، نعم، رمح المسامير أيضاً!

ـ أتينا لك بألعابك، قال الملك، حتّى لا تشعر بالملل في هذه المملكة!

تجوّل آسر مع الملك في غرفة الحلويات، وغرفة الألبان والأجبان، وغرفة المشروبات. ثم رافقه الملك إلى حديقة القصر حيث توجد المراجيح، وحوض السباحة، والخيام، والفخاخ... والأشجار المثمرة.

رأى آسر بوقرلّو الكبير يتأرجح وحده. ورأى يعاسيب الماء تدوّم وتطنّ فوق حوض السباحة، رأى أرنب أسامة! نعم أرنب أسامة! ثم رأى القطط.

ـ لقد بدأتْ تتكاثر، قال الملك، وهذا بفضل جهودكم!

ـ جهودنا؟ سأله آسر.

ـ نعم، جهودكم، أنتَ وريحان وأبّة، وكذلك بفضل الأفكار التي نبغ بها عقل ديدحان مفكر الامبراطورية، بعد اطّلاعه على تجربة ريحان في دراسة طباع القطط!

عاد آسر والملك من زيارة الحديقة. أمسك الملك بيد آسر وقال له:

ـ تعال نلعبْ معاً!

ثم صفّق للوزراء كي يأتوا بأطباق الحلويات والمشروبات والفواكه إلى غرفة اللعب.

حُجُرات القصر حتى الطبقة الأخيرة

اشتكى الملك الأخيضر، إلى آسر، من الشيخوخة التي تزحف على طفولته. وقال له:

ـ تستطيع، إذا رغبتَ، أن تصعد إلى الطبقات العليا من القصر. إنه قصر مخروطي الشكل، وسلّمه الحلزوني بات يرهقني...

صعد آسر واثباً، والتحق به كلبه تانغو محرّكاً ذيله حيناً، مرتمياً على قدميْ صَاحِبِه حيناً آخر. مرّ آسر بحجرات كثيرة مغلقة: غرفة اللمس، غرفة السّمع، غرفة الضوء، غرفة الأجسام الطافية، غرفة الحركة الغافية، غرفة المفتاح الأزرق...

وتابع آسر وتانغو ارتقاء السُّلّم الحلزوني حتى غرفة الحِيَل القديمة والحيل الوافدة في الطابق الأخير. أطلّ آسر من إحدى شرفات هذا الطابق فرأى مصطبة تمتدّ مثل الجسر، من الشرفة إلى قمّة الجبل المجاور. وبدأ يسمع ضجيجاً وأصواتاً وموسيقى...

أسرع الشاعر الأبرق كردوس، والموسيقار كعباشي الكراولي، والرسام الزاهي بوترزيزة، وسلّموا عليه جميعاً:

ـ سبقْتُموني إلى هنا! قال آسر.

ـ ألم يصعدْ معك الملك؟ سأله الأبرق كردوس.

ـ كلا، أجاب آسر.

ـ ولماذا صعد معك هذا الكلب؟ سأله كعباشي الكراولي.

ـ إنه كلبي تانغو الذي طرده أبي، أجاب آسر، وأنتم ماذا تفعلون هنا؟

ـ نعلّم الألوان طُرقاً جديدة... قال الرسام الزاهي بوترزيزة.

ـ في الرقص... أضاف الموسيقار كعباشي الكراولي.

ـ والغناء... أكمل الشاعر الأبرق كردوس.

ـ ولماذا تفعلون ذلك؟ سألهم آسر.

أجابوا بصوت واحد:

ـ لأن الملك الأخيضر يريد ذلك.

مشاكل تويتو في القصر

كَمْ كانت الأيام جميلة في قصر الملك الأخيضر! وقبل هجوم الجرذان، حدثت الفوضى مرّتين فقط، وكان ذلك بسبب تويتو دائماً.

في المرّة الأولى جاءت الوصيفة قُنْزُعَة وأخبرت الملك بأنها وجدتْ تويتو في قفص الدّواجن، يسقيها ماءاً ساخناً. وعندما سأله الملك عن سبب سلوكه ذاك، أجاب: «أأبْ أسقي الطيور ماءاً ساخناً حتّى تبيض لنا بيضاً مسلوقاً كما يجب!» غضب الملك الأخيضر وأخرج من جيبه بيضتين، ثم أجبر تويتو على شربهما نيئتين. تقزّر توتيو وبصق البيض، فلطّخ صدره وبطنه. ومن غضبه الساخن جفّ البيض السائل على ثيابه فلحسه تانغو.

وفي المرّة الثانية، نام تويتو كعادته، بعين واحدة، وعض تانغو. فغضب الكلب وعضّ كشبور. غضب كشبور ودعس ذيل القطة. غضبت القطة وسقطت في شربة الملك الأخيضر. غضب الملك الأخيضر وألقى بصحفة الشربة وفي داخلها القطة، على رأس رئيس الوزراء الذي تفتَّق رأسه عن فكرة «الحلّ في أوّل السلسلة!» وهجم على تويتو فعضّه. قال تويتو: «أنا أول السلسلة نعم، لكنني لست آخر السلسلة!» وعضّ الملك الأخيضر!

اشتدّ غضب الملك الأخيضر وأصدر أوامره:

ـ يُحرم تويتو من الإقامة في القصر ويلتحق بالعمل كمدوّن للأحداث فقط، في الدفتر الكبير.

ندم تويتو، أو ربّما تظاهر بالنّدم، عندما طلب العفو من الملك الأخيضر، فرفض طلبه.

صعد تويتو إلى الطبقة العليا وهو يردّد محتجّاً:

ـ لكنّ الذي يكتب لا يلعب... أأبْ لا يلعبْ...

تقرير وزير الوقائع(1)

بعد تعيين تويتو مدوّناً لأخبار المملكة في الدفتر الكبير، هدأ القصر. غير أن حُجرة التّدوين لم تهدأ، إذْ أنّ تويتو عضّ راصد الكنوز. أما في القصر فقد كانت الأجواء مسلّية جدّاً ومفيدة على الرغم من الهجوم الموشك للجرذان.

ـ إليكم بعض ما دوّنه تويتو في دفتر المملكة! قال الوزير المكلّف بوقائع المملكة في جلسة يوم الثلاثاء. وبدأ يقرأ:

نادى الـ(هنا كتب تويتو اسم الملك ثم عضّه على الدفتر) على الفرح فجاءت به الوصيفة (هنا عضّ تويتو اسم قُنْزُعَة) وصَبَغَهُ الرسام (عض اسم الزاهي بوترزيزة في الدفتر) بفرشاة ألوانه. وصفّق الجميع عندما رسم لهم الهواء أيضاً. وأجمل لوحة رسمها كانت تمثل (هنا عضَّ تويتو اسم رفيف الماء) خارجة من النهر بفستان القطيفة.

أما الزائر الثاني، وهو (هنا عضّ تويتو اسم الموسيقار كعباشي الكراولي) فقد عزف ألحاناً خفيفة سرعان ما طارت باحثة عن أخواتها في أماكن أخرى، عبر حجرات القصر، وَظَلّتْ كذلك حتى بعد انتهاء العزف. وأجمل ألحانه مقطوعة عن دموع الفرح عندما تكون منتظرة في بركتها الصغيرة خلف العين.

والثالث لا يعزف ولا يرسم؛ إنه (اسم الشاعر الأبرق كردوس معضوض) يمشي في القصر وخطوته سبعة فراسخ. لكنه يظل قريباً بيننا ولا يبعد عنّا. قال: «أنا الآن مضطّر إلى قراءة قصيدة قديمة» لكنه لم يقرأ كلمة واحدة. طلب منه الجميع أن يَرَوْا القصيدة، أو يسمعوها، أو يشمّوها، أو يأكلوها، أو حتّى يلمسوها. سكت طويلاً ثم قال: «عندما نحلم نعود إلى البارحة» ثم قرأ قصيدة البارحة التي لا يُفهم منها شيء اليوم.

تقرير وزير الوقائع (2)

صاح الحضور: نريد قصيدة اليوم! فعاد إلى صمته «لابدّ أن أدخل في ظلّي قبل أن أكون!»

نُودِيَ مفكّر الامبراطورية (هنا توجد عضّة في موضع اسم ديدحان) كي يحلّ طلاسم هذه القصيدة:

مَنْ أَسْكَنَ رُوحيَ أَزْمِنَةً؟

مَنْ قَسَّمَ جِسْمِيَ مخلوقاتْ؟

مَنْ وزَّعَنِي بين بلادٍ أشتاقُ إليها،

ومَالِكَ أتوهَّمُهَا؟

بالأمسِ،

تردَّدَ طِفْلُ القِسْمَةِ في لُغَةٍ،

تبحثُ عمَّنْ يتَكَلَّمُهَا،

أَقْبَلَ طِفْلُ القِسْمَةِ حيّاً

يسعى في أَرْوِقَةِ الأَمْوَاتْ.

قال مفكّر الامبرطورية:

ـ هذه ليست لغة العقل. ولابدّ من التأويل: هناك عصافير كثيرة تزقزق في قفص. وأمام القفص، طفل عضّته أوزّة من لسانه. فذبحتْها جدّته، وأَطْعَمَتْه لسانها. كبر الطفلُ وصار شاعراً.

ذلك ما قاله مفكّر الامبراطورية؛ أما الزائر الأخير الذي يدلّه الملك كثيراً ولم أعضّه حتى الآن فهو يُدْعَى (هنا عضّة كبيرة على الدفتر) وقد نال حظوة لدى الملك لأنه يدّعي المهارة في الألغاز، وفهم طباع القطط والجعلان والقريدس، وتصنيع الرّماح ذات المسامير، والتماثيل الصغيرة في قوالب من الجبس.

أحبّه الملك وقرّر أن يضيف إلى حديقته جناحاً خاصّاً بالجعلان، ويرسل ريحان أو أبّة لجلب بطاريات جديدة للألعاب. كما كلّف نجّاري المملكة بصناعة عدد كبير من الرماح ذات رؤوس المسامير من أجل مقاومة الجرذان.

تقرير وزير الوقائع (3)

أما الحدث الثاني الذي لا يخلو من أهمية، وذلك لعلاقته المباشرة بالتطوّرات الخطرة التي تهدّد المملكة، فقد زاد في درجة النكد. إذْ مرّت أيام، والقصر لا يهدأ ولا ينام، وكلّه ألعاب وموسيقى وألوان، على الرغم من اقتراب الهجوم، وإذا بالأميرة (هنا عضَّ تويتو اسم الأميرة ننجال الأخيض) تأتي نادمة، باكية، في موكب من وصيفاتها.

بكت الأميرة (عضّة أخرى) أمام أبيها، وقالت:

ـ الجرذان ائْتَوْلَتْ على الثُّلطة في قريتي، هيءْ! هيْ!

نعم أصيبت الأميرة (عضّة) بحازوقة دائمة «هيءْ! هيءْ!» من هَوْل الصّدمة. صارت تتكلّم والحازوقة لا تفارقها «هيءْ! هيءْ!» وتأكل، والحازوقة تعرقلها «هيءْ! هيءْ!».

قرّر الملك (عضّة) أن تتعلّم ابنته (عضّة) فنون الموسيقى والشعر والرسم.

لكن «هيءْ! هيءْ!» مع الموسيقار (عضّة) ثم «هيءْ! هيءْ!» مع الشاعر (عضّة) ثم «هيءْ! هيءْ!» مع الرسام (عضّة)

عندئذ أعلن الملك (عضة) عن عقد مؤتمر استثنائي حول الحازوقة الدائمة، يترأسه مفكر الامبراطورية (عضّة).

التوقيع

(هنا عضَّ تويتو اسمه!)

أنهى وزير الوقائع قراءة تقريره الثلاثي في جلسة يوم الثلاثاء، وسأل رئيس الوزراء عن نوع الإجراء الذي ينبغي اتّخاذه تجاه تويتو «المدوّن المذنب» فأجاب رئيس الوزراء:

ـ لابدّ من عرض الدفتر على الملك الأخيضر، وليكنْ ما يكون!

الرُّخّ

في قرية الزمن السكران تاه الجندي الدواس وخنصر الحنّاء أيّاماً ولياليَ، بل أسابيعَ وشهوراً. كلاَّ، بل عُصُوراً ودهوراً. وفي إحدى ليالي الزمن السكران دخل الدواس زقاقاً، هو جيب زمنيّ، فلم يلتحق به خنصر الحنّاء.

توغّل الدوّاس في الماضي. وغاب إصبع الحنّاء في المستقبل.

غير أن إصبع الحنّاء لم يتمكن من قيادة السيارة الصاروخية فسقط منها إلى الحاضر.

حدثت صدمة أخرى فخرج الدواس من باب الماضي والتقى بإصبع الحنّاء. صاح إصبع الحناء:

ـ أسرعْ. يا دواس! الخمسة ما حررش!

ـ ماذا تحمل على ظهرك؟ سأله الدوّاس.

ـ وجدتُ صندوق ساعات!

أسرع الجنديان متماسكيْن باليدين حتى لا تفرّق بينهما الأزمان. لكنهما سقطا في حفرة زمنيّة تعود إلى عصر الديناصورات. هربَا منها إلى غابة. لكنْ الغابة كانت رخّاً نائماً؛ تمسَّكا بريشه وركبَا.

ـ المشكلة الآن في كيفيّة العودة إلى مملكة الأخيضر؟ تساءل الدواس.

ـ هل يسقط الرخّ في زمنها؟ سأل خنصر الحنّاء صديقَه الدوّاس.

استيقظ الرخّ من نومه منزعجاً، وطار حانقاً، وعلى ظهره الجنديان.

ـ عليك أن تلوي عنقه وتدفع به إلى كلّ الاتجاهات، صاح إصبع الحناء.

ظل الرخّ يحلّق، والجندي الدوّاس يقترب من عنقه جاهداً حتى يجرّب جميع الاتجاهات، بينما خنصر الحنّاء يهمزه بقدميه. بلغ الرخّ مطبّاً هوائيّاً في المستقبل، فهوى. ولحق به قلب إصبع الحنّاء وقلب الدواس.

تمسّكا به من جديد. اصطدم الرخّ بالمستقبل. وكان المستقبل على هيئة جسم فضائي غريب لم يعرفه الجنديان. لوى الجسمُ المعدنيّ المضيء عنقَ الرخّ من هول الصدمة. دار الرخّ حول جسمه مرات عديدة جعلته يعود إلى الماضي قليلاً...

كيف أَصْلَحَ كشبور أخطاء تويتو

عندما أُخبر الملك الأخيضر بأن تويتو عضّ الأسماء كلّها على الدفتر الكبير، أصدر أوامره الجديدة:

ـ فَلْيُكَلَّفْ كشبور بإعادة كتابة الأسماء على قصاصات صغيرة، وإلصاقها في أماكن العض. أما تويتو، فلابدّ أن أفكّر في عقوبته المناسبة.

لم تمض بضع ساعات حتى عاد رئيس الوزراء بملخَّصٍ للتقرير الجديد الذي أعدّه وزير الوقائع، وخاطب الملك الأخيضر قائلاً:

ـ انظرْ، أيها الملك المبجَّل، كيف أصلح كشبور أخطاء تويتو!

ـ ماذا فعل كشبور، هو الآخر؟ سأله الملك.

ـ لقد ألصق القصاصات الصغيرة عشوائياً، في غير مواضعها المناسبة، كي يعود بسرعة إلى اللعب في القصر! اسمعْ أيها الملك:

«نادى الأبرق كردوس... فجاءت الوصيفة ننجال...

«وصَبَغَه الرسام كعباشي الكراولي...

«وأجمل لوحة رسمها كان تمثل الأميرة قنزعة...

«أما الزائر الثاني وهو مفكر الامبراطورية ديدحان...

«والثالث لا يعزف ولا يرسم. إنه الملك آسر...

ـ يكفي! يكفي! صاح الملك، يا لها من فوضى في الأسماء! فليذهبْ آسر إلى التّدوين!

سلسلة أولى من العقوبات الملكّية

عاقب الملك الأخيضر صديقه السابق حامل الفخاخ، بعد هزيمته أمام الجنديّ الدواس؛ فكلّفه بتنقية أرض الحديقة من الحشرات التي تقرض جذور النّباتات، وملاحقة أنفاق الخلد، وتنظيف أقنان الدواجن.

وحكم على تويتو بحراسة القشريّات المدّرعة، مثل القريدس والسرطان وبوقرلّو الأسود؛ فلم يعد تويتو يجد لحماً طريّاً يعضّه.

وعاقب كشبور، فأمره بمراقبة تويتو، وتدريبه بكلّ الوسائل المتاحة، حتّى يكفَّ عن العضّ. فماذا فعل كشبور؟ لقد توصل إلى حيلة مجدية؛ صار يمسك بالقريدس ويُجْبر تويتو على عضّه، ثم يتناول سرطاناً ويجبر تويتو على عضّه. لكنّ تويتو يرفض عضّ تلك المصفّحات الصغيرة. وبعد محاولات فاشلة، وهرج وصياح، توصّل كشبور إلى حيلته المجدية:

ـ ها هي ذي يدي، عُضَّني منها يا تويتو، خُذْ!»

يهجم تويتو كي يعضّ يد كشبور، فيسرع كشبور، ويسحب يده، مقدّماً يده الأخرى التي يخفي فيها سرطاناً.

وبعد أن وقع تويتو في الفخ أكثر من مرّة وعضّ السرطان والقريدس والجعل، قرّر أن يكفّ عن العضّ خوفاً من المفاجآت المدّرعة.

قال كشبور للملك الأخيضر:

ـ أيها الملك، نجح اللّقاح، وصار تويتو يخاف من العضّ!

أجاب الملك:

ـ واصلْ تَدْرِيبَهُ: عشرة سرطانات، وعشرة قريدسات، وعشرة جعلان. وعندما ينتهي آسر من تدوين رحلته، يعود تويتو إلى الدفتر الكبير، فيعيد نسخه، من أوله إلى آخره، على دفتر آخر... هذه عقوبته الأخيرة لكشف شفائه النهائي، لكن بشرط...

ـ وما هو هذا الشرط؟ سأله كشبور.

ـ أن يبقى معه راصد الكنوز، ويغريه دائماً بالقول: «عُضَّني، عضَّني يا تويتو كما تريد!» وإذا لم يعضّه طيلة أيام النسخ؛ فمعنى ذلك أنّه شفي تماماً!

آسر يدوّن حكايته

صعد آسر إلى الطابق الأخير في القصر، وقفز إلى الجسر الرابط بين الشرفة وقمّة الجبل.

خرج مفكر الامبراطورية من جحره؛ وهو صخرة كبيرة محفورة في الجبل وفيها باب خشبي منقوش؛ فاستقبل آسر قائلاً:

ـ أنا دَيْدَحَان، عيناي لا تبصران جيداً في ضوء النّهار.

ثم دلّ آسر على غرفة التدوين. وأخبره بأن ريحان وأبّة لم يكملا تدوين زيارتهما. فرح آسر، وأسرع إلى غرفة التّدوين فلم يجد أحداً. فتّش عن البيض في جيوبه، فلم يجد بيضة واحدة. عاد إلى ديدحان وسأله، فأجاب المفكّر:

ـ أنت تراهما الآن بنور العقل وليس بخِدَاعِ الحواس!

ثم طلب منه أن يشرع في التدوين.

كان الدفتر الكبير صغيراً جدّاً؛ بل أصغر حتّى من كتاب القراءة.

ـ لماذا تسمّونه الدفتر الكبير؟ سأل آسر شخصاً لامعاً في الغرفة.

ـ أنا بريبش راصد الكنوز.

ـ وهل يوجد ذهب هنا؟

ـ لا يوجد إلا الدفتر الكبير والثُّقْب...

ـ الثقب؟

ـ الثقب في حجرة مفكر الامبراطورية، أمّا الدفتر الكبير...

ـ لكنه دفتر صغير الحجم! قاطعه آسر.

ـ نعم، هو دفتر صغير الحجم، أكّد بريبش راصد الكنوز، لكنْ، يمكن أن يُكتب فيه كلّ شيء، لأن أوراقه لا تنتهي.

قرأ آسر ما كتب ريحان وأبّة وكعباشي الكراولي والزاهي بوترزيزة والأبرق كردوس وغيرهم، ثم كتب حكايته من أوّلها حتى وصوله إلى المملكة.

ـ لماذا أكتب هنا، فينتقل كلّ ما أكتبه إلى أول الدفتر؟ سأل آسر.

ـ لا شيء أهم من المملكة، أجاب راصد الكنوز، لكنّ المملكة تتسلّى بما يحدث في تخومها البعيدة.

ـ وما معنى ذلك؟ سأله آسر مرّة أخرى.

ـ لا أحد يأتي من عدم، أجاب راصد الكنوز، ولابدّ أن يتخيّله الآخرون.

في ضيافة مفكر الامبراطورية(1)

بعد انتهاء آسر من التّدوين التحق بحُجرة مفكر الامبراطورية فوجده متذمّراً، مهموماً:

ـ طرأ علينا مؤتمر الحازوقة، قال دَيْدَحَان، والحال أن طبول الحرب تدقّ على الأبواب! ينبغي أن يتركوني بعيداً عن مشاغلهم وقريباً من مشاغلي!

ـ وما هي مشاغلك؟ سأله آسر.

ـ ها هي ذي! أجاب مفكر الامبراطورية مشيراً بيديه إلى أوراق كثيرة عليها خطوط ودوائر وأرقام ونجوم...

ـ ولماذا كلّ هذه الخرابيش؟ سأله آسر.

ـ كلّ هذا من أجل رتق الحفرة...

ـ أيّة حفرة؟

ـ الحفرة التي أعدّوها لك عندما تعود!

ـ وما الحلّ؟ سأله آسر.

ـ الحلّ في رتق الثقب، أو إبعاد الشمس عن الأرض، أجاب ديدحان.

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ هناك حلّ ثالث... أجاب ديدحان.

ـ وما هو ذلك الحلّ الثالث؟

ـ أن يكفّوا، هناك، عن ذبح الأرض وخَنْق السماء!

جلس آسر في مقعد ديدحان وسأله:

ـ لماذا لا يسمّونك مفكر القرى؟

ـ لأني مفكر المملكة كلها.

ـ ولماذا يسمّونك مفكر الإمبراطورية؟

ـ لأن مملكتنا هي إمبراطورية الممالك كلها، ولا تحتاج إلى لغاتها.

في ضيافة مفكر الامبراطورية(2)

ارتاح آسر إلى مفكر الامبراطورية الذي يسكت عندما يجلس آسر على كرسيه. ويتكلم، عندما يسأله، عن كلّ شيء:

ـ ماذا يوجد خلف هذا الجبل؟

ـ مياه خيّرة وشرّيرة، طبقات من السحب تأتي بالزوابع.

ـ هل هي بلاد الخوف؟

ـ لا أحد يعرفها حتّى يخاف!

ـ لكنّك تحدّثتَ عنها!

ـ انظرْ! قال ديدحان، لقد امتلأتْ جيوبك بيضاً لأنّني أحدّثك عن المجهول! هذا طعامنا اليوم.

ـ كيف تتحدّث عن أشياء مجهولة؟

ـ ما أعرفه عنها أقل بكثير من هذا البيض الذي ملأ جيوبك، لكني أفكّر فيها دائماً حتّى آكل! هيا للغداء!

انتبه آسر إلى ثقب خلفيّ في صخرة ديدحان الكبيرة. أطلّ منه فشاهد العناصر كلّها تتموّج وتتجاوز كلّ المقاييس.

ـ هناك يحلم الكون بأسره، قال ديدحان، نحن نقول بأننا وَحْدَنَا، وأنتم تقولون مثل ذلك، لكنّ الكون يتحرّك بطفولات أخرى تائهة بعد أن كبُر أصحابها... طفولات تعيش في السرّ، وفي عودات لا تنتهي، لأنّها سَنَدُ العالم، وعنصر سابح في الأبدية؛ طفولات الظلّ التي تغطيها جذوع الإنسان المتيبِّسة.

ـ أنت مفكّر كبير قال آسر.

ـ كنتُ مفكّراً بحجم مملكتنا. لكن الملك الأخيضر أطلّ مثلك من هذا الثقب فقال عنّي إنني مفكّر كبير، وقرّر أن يسميني مفكر الامبراطورية. فكيف أكون مفكّراً كبيراً، وأنا أملأ جيوبهم بالبيض أكثر ممّا يملؤون جيوبي؟ لكني أعود فأعزّي نفسي بالقول إن البيض هو محكّ أفكاري واكتشافي للمجهول.

ـ كيف؟ سأله آسر.

ـ الفكرة الصحيحة تأتي بالاكتشاف، والفكرة الخاطئة تأتي بالبيض!

في ضيافة مفكّر الامبراطورية(3)

في لحظة من لحظات الصّفاء التي تمرّ بمفكر الامبراطورية، قال لآسر:

ـ سوف يأتي يوم ويتحدّثون عن اكتشافي!

ـ ماذا اكتشفت. سأله آسر.

ـ كُلّنا شخصٌ ثالث يأتي من لقاء شخصيْن!

ـ لكن الجميع يتحدّثون عن هذا الاكتشاف، ردّ آسر، وقد أخبرني به ريحان وأبّة وكشبور.

ـ المشكلة في الفهم وليس في الحديث، أكّد ديدحان.

ـ وهم يفهمون ذلك أيضاً، أضاف آسر.

ـ المشكلة في التحوّل إلى الفهم وليس الاكتفاء له، أضاف ديدحان، كلٌّ من يماثل نفسه يبقى بلا وقاع.

ـ لماذا لا ترى جيّداً في الضوء؟ سأله آسر.

ـ اشتغل بالبصيرة، يا بنيّ!

ـ كيف أتمكّن من رؤية أبّة وريحان؟

ـ ألا يكلّمانك في بطنك؟

ـ كلا!

ـ معنى ذلك أنك انشغلتَ عنهما بغيرهما؛ ينبغي التفكير فيهما!

ـ هناك ضاعت عيونهم الأولى! قال صوت مفاجىء.

ـ الأولى عيونهم! أضاف صوت آخر.

ـ ريحان! بوشويشة! أوضح ديدحان.

ـ كِذْب مع نقص دائم في البيض! هتف صوت ريحان.

ـ البيض في دائم نقص! كرّر أبة.

ـ حتّى الصُّوَر؛ يحتاجون إلى شاشات كي يروها!

ـ يروها كي شاشات!

سكت الصوتان وامتلأت صخرة المفكّر بالأضواء الفوسفورية والألوان. لاحت بيضة ريحان. وقرأ آسر تلك الكلمات المعلنة عن عودته؛ ثم ظهرت بيضة كبيرة.

قفز ريحان قائلاً:

ـ ورائي بيضة أبة!

ـ أبة بيضة ورائي!

مؤتمر الحازوقة

انتقل كلُّ مَنْ في القصر، عبر الدّرج الحلزوني، إلى الشرفة، ومنها إلى الجسر المؤدّي إلى صخرة ديدحان الجبلية: هذا الصباح ينعقد أمام الصّخرة مؤتمر الحازوقة. جاءت وفود كثيرة من القرى وتوزّعت على سفح الجبل.

جلس المصابون بالحازوقة في الصّفوف الأماميّة: الأميرة ننجال في الوسط، «هيءْ! هيءْ!» بسبب هجوم الجرذان على قرية المقلوبين، تويتو أيضاً «هيءْ! هيءْ!» بسبب القريدس، والسلطعون «أبي جنيبة»، والكثير من المرضى القادمين من القرى «هيءْ! هيءْ!» إلى ما لانهاية... وحضر الملك.

ـ باسم مملكة الأخيضر... قال مفكر الامبراطورية.

ـ هيءْ! هيءْ! هيءْ!

ـ الحازوقة المُؤَقّتة ليست مشكلة...

ـ هيءْ! هيءْ! هيءْ!

ـ نجتمع اليوم من أجل الحازوقة الدائمة، الحازوقة التي تدوم العمر كلّه في بعض الحالات، وقد تقتل أصحابها. فهل لديكم أسئلة محدّدة قبل أن نمرّ إلى طُرق العلاج؟

انطلقت الأسئلة من كلّ الاتّجاهات. وبدأ مفكر الامبراطورية يكتب على أوراقه.

ـ ما هي أسباب الحازوقة؟

ـ أنا حازوقتي لم تفارقني منذ الولادة...

ـ أنا لا أرتاح إلا بين الثامنة والعاشرة صباحاً...

ـ ما هو العلاج؟

تنحنح ديدحان وبدأ يتكلم:

ـ هناك مائة وخمسون سبباً للحازوقة. أمّا العلاج فهو يتطلّب الضغط على الوداج.

ـ وما هو الوداج؟

ـ هو الشريان السباتي.. أي هذا العرق، في العنق، الذي ينتفخ عند الغضب، أوضح مفكر الامبراطورية وهو يكشف عن عنقه خلف لحيته.

فجأة سَرَت الدهشة في وجوه الحاضرين. وقفوا كلّهم وحدّقوا في الأفق؛ أعلن ريحان وأبة عن حضورهما في الهواء:

ـ الجرذان... الجرذان وصلتْ. إنها تحاصرنا من كلّ الاتجاهات!

هل أكلتِ الجرذان حامل الفخاخ؟

عاد الجميع إلى القصر حيث انعقد اجتماع آخر، حضره كلّ القادرين على فهم الجرذان وطباع القطط وإدارة الأزمة. ورفض مفكّر الامبراطورية حضور هذا المؤتمر قائلاً: «الآن تتعطّل أعمال الفكر!» أما حامل الفخاخ فكان في رحلة صيد للخُلد.

قدّم ريحان تقريراً مفصَّلاً عن هجوم الجرذان؛ سأله الملك الأخيضر:

ـ هل يقودها الدوّاس وخنصر الحناء؟

ـ مازَالا تائهيْن في قرية الزمن السكران.

ـ ماهي خسائرنا حتى الآن؟

ـ الجرذان أكلتْ حامل الفخاخ.

ـ لماذا بدأتْ به؟

ـ لأنه لقّنها أسراره حتّى عرف أسرارها ودجّنها.

ـ وما العمل الآن؟

استغرب آسر من الملك أن يقتصر على الأسئلة؛ فتدخّل قائلاً:

ـ يجب أن نهجم عليها قبل أن تهجم علينا!

ـ ولكنّها هاجمتنا ونحن محاصرون الآن!

ـ يجب أن نجهّز الأسلحة!

ـ وما هي هذه الأسلحة؟

ـ كلّ ما عندنا في القصر أسلحة، أوضح آسر؛ أين الرماح؟ أين القطط؟ أين الفخاخ؟

ثم التفت آسر نحو أبة:

ـ أين الفحم يا أبّة؟

وبعده نحو ريحان:

ـ أين القطّ الأسود، يا بوشويشة، أين القط الأسود، يا ريحان؟

الجرذان تحاصر القصر

عادت صورة الجرذان إلى كشبور فأعادتْه إلى مشيته القديمة.

وهكذا اضطرّ الملك الأخيضر إلى مَنْعِه من تدوين أحداث الحرب وهو يدفع يديه سائراً في نومه، وترك المهمّة إلى تويتو وحده، تحت إشراف راصد الكنوز.

ولأنّ تويتو شُفي من العضّ، بَعْدَ علاجه بواسطة القشريات المصفّحة، وتخلّصه، بذلك، من آثار زيارته إلى قرية الزمن السكران، فقد كتب في الدفتر الكبير:

«جاء ريحان (هنا كتب تويتو هذه الجملة الاعتراضية التي تدلّ على شفائه: «أنا لا أعضّ» بأخبار الحرب، في وقت مبكّر. وقال إن الجرذان عضّت أوتار الموسيقى في كلّ مكان مرّتْ به. الجرذان تعاونتْ، في مجموعات انتقامية جرّارة، وجرّت أمير قرية الطحانين إلى النّهر الأزرق وأغرقته فيه، ثم سيطرت على المطاحن. وشوهدت الجرذان تقفز حاملة بيض الطيور وبيض الكذب أينما مرّت، وفوقها سُحُبٌ قاتمة من البعوض والذّباب الكبير الملوّن، وغير ذلك من الأنواع التي تعرف كيف تستفيد من الحرب. وأخيراً نجت رفيف الماء (أنا لا أعضّ) والتحقت بالقصر».

أما في القصر فقد تمثّل الحدث الجديد في ظهور حامل الفخاخ المفاجئ بعد رحلة صيد الخُلد. تناول حامل الفخاخ بيضتين من جيبه ثم قال معلّقاً:

ـ الجرذان لم تأكلني! جهزوا الفخاخ! جوّعوا القطط!

ـ لابدّ من القط الأسود حتى يقودها! صاح آسر.

ـ لابد من الرماح ذات رؤوس المسامير! هتف ريحان.

ـ المسامير رؤوس، أضاف أبة، لابدّ من الفحم!

ـ أطلقوا أرنب أسامة! صاح آسر.

ـ أسامة أرنب! صاح أبّة.

في الخارج بدأ هجوم الجرذان على أبواب القصر، وقفزت بعض المجموعات الانتحارية عبر النوافذ.
تمكّن جرذ من السقوط حيّاً في قاعة الاجتماعات التي تحوّلت إلى خليّةٍ لإدارة الأزمة. أفلت الجرذ الانتحاري وصعد درجات السُّلّم الحلزوني:
ـ أيها الحرّاس الزرق، أسرعوا! حاصروه قبل أن يأكل كتاب المملكة! صاح الملك في كلّ الاتجاهات.

ماذا ينوي آسر بالجرذان الأسيرة؟

ارتفعت أصوات الجرذان، وأصداء ارتطامها بالأبواب والنوافذ، فملأت القلوب والآذان. انتشرت رائحتها وعمّت المكان. صُوَر الجرذان غير المرئية تصيح وتقفز في العيون، وتلتهم كلّ شيء.
ـ على الأميرة والوصيفات أن يُسَيْطِرْن على أعصابهنّ ويُخَفِّفْن من البكاء والصّياح، صاح الملك الأخيضر آمراً، الآن يظهر القط الأسود!
امتلأ القصر بالألوان والأضواء الفوسفورية. لاحت البيضة مرتسمة في فراغ البهو. انشقَّتْ فخرج منها القط الأسود!
ـ اِنزلوا من السلالم، صاح آسر، سيبدأ الهجوم المضاد، ابتعدوا عن النوافذ!
ابتعد الملك والوزراء عن النوافذ. واقتربت رفيف الماء من آسر مرتجفة. لكنها لم تتمكّن من الحديث إليه بسبب صرخة هائلة متدحرجة من السّلّم الحلزوني؛ كانت تلك قُنْزُعَة الوصيفة تصيح وتولول وجرذ السُّلّم تحت فستانها.
انشقّت بيضة أخرى وخرج منها أبّة حاملاً أكياس الفحم.
ـ لا تقتلوا الجرذ الذي هاجم قُنْزُعَة، صاح آسر، أمسكوا به حيّاً!
ـ حيّاً به أمسكوا، كرّر أبّة.
ـ ينبغي ربط قطع فحم سوداء بكلّ جرذ يقع في الأسر، أضاف آسر.
ـ لماذا؟ سأله حامل الفخاخ، ما هذا العبث؟
ـ لا وقت للأسئلة، ردّ آسر، المملكة في خطر! هيّا، هيّا اربطو الفحم بالجرذان الأسيرة!

الملك الأخيضر يأمر بفتح الأبواب

في أعلى مرصد للمملكة، كان تويتو، وراصد الكنوز، ومفكّر الامبراطورية، يتفحّصون الأفق، ويرصدون سير المعركة.
كانت الأرض تبدو لهم، من فوق، كأنها تغلي، بينما الغبار يتصاعد حتى السماء مختلطاً بالسُّحب.

في نقطة محدّدة من التقاء غبار الأرض بسحب السماء، انتبه تويتو إلى بقعةِ ظلٍّ داكنةٍ، تشق الطبقات المتموجة، فتقترب، ويكبر حجمها. نادى راصد الكنوز ليتأكّد من ذلك الجسم الغريب، ثم أسرعا نحو مفكّر الامبراطورية ليخبراه بالأمر.

غير أن مفكّر الامبراطورية بدا هادئاً أكثر مما يجب:

ـ بصيرتي لا تسعف بصري الآن، قال ديدحان، عليكما بمتابعة الجسم حتّى يظهر!

وما هي إلاّ لحظات حتى قفز تويتو من الصخرة، إلى الجسر، إلى الشرفة، إلى السّلم الحلزوني، متدحرجاً حتّى قاعة الاجتماعات:

ـ هو... أأبْ... رأيته... في السماء... أأبْ!

ـ انطقْ! ماذا رأيت في السماء؟ سأله الملك وهو يخضّه خضّاً.

ـ الرّخّ! أأبْ! الرّخ!

اقترب الرخّ من سماء القصر وبين براثنه أعداد كبيرة من الجرذان؛ بدأ يقذف بها إلى القصر.

ـ الجندي الدواس! الجندي الدوّاس يمتطي ظهر الرخّ! صاح كشبور.

امتلأ القصر بالجرذان الراكضة في كلّ اتجاه. اختبأت رفيف الماء في جرّة الماء. أغمض كشبور عينيه من جديد، سار رافعاً يديه في أروقة القصر، معرقلاً الجميع.

أرسل الملك الأخيضر في طلب مفكر الامبراطورية ليحلّ مشكلة الرخّ الطارىء.

ـ في مثل هذه الظروف يكتفي العقل بالتأمّل. قال ديدحان.

ـ نريد حلاّ! قال الملك.

ـ الهجوم ثم تأتي الحلول، أجاب مفكر الامبراطورية.

ـ إذاً، افتحوا أبواب القصر، واستدرجوا الجرذان إلى الحجرات العليا، أمر الملك.

القصر يغرق

عندما طلب آسر من الملك أن يخرج الرِّمَاح التي صنعها نَجَّارُو المملكة؛ أخبره الملك بأن تلك مهمّة الحرس الأزرق الذي يستكمل شحذ الرّماح، ونَقْلَها من حجرة الحركة النائمة، إلى حجرة الأجسام الطافية، ثم حجرة الضوء. لذلك التحق آسر بحجرة الضوء. ولم يكن حاضراً عندما أمر الملك الأخيضر بفتح الأبواب واستدراج الجرذان.

وما إن فُتحت الأبواب حتّى اندفع القط الأسود خارج القصر، وراءه القطط الجائعة، وراءها أبة حاملاً أكياس الجرذان الأسيرة التي رُبطت بقطع الفحم.

سُمع وَقْع خطوات سريعة تقبل من الدّرج الحلزوني: اندفع آسر في مقدّمة فرقة الرماح المساريّة التي خرجت لتوّها من الغُرَفِ السحرية.

وبدأت المعركة ضدّ الجرذان من أجل فك الحصار.

ارتعبت الجرذان من القط الأسود وجيشه، وحتّى أرنب أسامة الخائف، حَسِبَتْه قطّاً سريعاً أبيض. وزاد في رعبها عواء تانغو في كلّ اتجاه.

وصار رمح آسر يرسل أشعة فوسفورية تعمي عيون الجرذان فلا تعرف طريقها، وتهجم على بعضها البعض، لكنها لا تفلت من فرقة الرماح.

ـ لا وقت للعب بالجرذان الآن، صاح ريحان في القطط التي شبعْت وتعبتْ.

دار الرّخ دورة واسعة حول القصر ثم انقضّ على الجرذان يلتقطها ببراثنه. وفي لحظة انقضاضه، واقترابه من النوافذ، لاحظ تويتو أن خنصر الحنّاء يركب وراء الدّواس ويتمسّك به وقد بَدا عليه الّذعر، بينما الدوّاس يضحك ضحكات مدوّية في الريح.

ـ لا أحد يعود إلى القصر الآن، صاح أبّة، سيفتحون غرفة المفتاح الأزرق!

هبّت عاصفة ألوان وأضواء. انفتحت قبة القصر. بدأ كلّ شيء يغرق ويغوص. تدفّقت المياه والطيّن. الجرذان تحاول السّباحة.

ـ القصر يغرق! صاح آسر.

ـ يغرق القصر، لا يغرق، ردّ أبّة، حتّى يعود الرخّ وتغرق الجرذان!

لكنّ موضع القصر تحوّل إلى بحيرة تهدر فيها السّيول والجرذان.

هل هي العاصفة التي انشقت؟

ظهرت في السّماء سحبٌ عظيمة الكتلة.

بدأت تكبر وتتضخّم من أعلاها مرتكزةً على قواعدها الأفقيّة التي غطّتْ مكانَ القصر. استقرّت القواعد الأفقيّة وظلّتْ ثابتة. انتشرت الطّبقات العليا من السُّحب وشكّلت سِنّداناً هائلاً.

أطلق البرق سيفاً من شرر.

طرق الرّعد سندان الغيوم؛ فأمطرت كما لم تمطر في أي مكان آخر.

هل هي العاصفة التي انشقّت وابتلعت الرخّ؟

لقد سقط الدوّاس وخنصر الحنّاء في البحيرة التي كانت قصراً. أخذا يسبحان ويصيحان مع الجرذان.

ـ سقَط صندوق الساعات! صاح خنصر الخناء.

ـ هيءْ! هيءْ! اِسبحْ واُسكتْ! أمره الدوّاس وقد أصابته حازوقة.

ـ سأغرق! صاح خنصر الحنّاء خائفاً.

ـ خسرنا المملكة وخسرنا قرية الجرذان، قال الدّواس، هيءْ!

ـ لماذا كلّ هذه الحرب؟ سأله خنصر الحناء.

ـ هيءْ! كنّا سنستولي على الثّروات السطحية، هيءْ! والباطنية، هيءْ! بفضل الجرذان.

ـ لكننا خسرنا كلّ شيء الآن، ماذا سنفعل؟

ـ نجنح للسِّلْم، هيءْ! ونعود إلى التحالف مع الملك الأخيضر، أجاب الدواس.

ـ وهل يقبل؟

ـ سيغفر لنا كما غفر لحامل الفخاخ، هيءْ! والأميرة المقلوبة، هيءْ!

عودة الشعارات

ـ كيف سيعود القصر فوق هذه المياه؟ سأل آسر أبّة.

ـ المياه هذه، تنتظر ريحان، أجاب أبة.

ـ وماذا سيفعل ريحان؟

ـ ريحان سيفعل، كرر أبّة، القفل مع الملك الأخيضر، والمفتاح الأزرق مع ريحان.

ـ لكن ريحان لا يظهر والملك يغرق!

ـ يغرق الملك ويظهر لا ريحان لكن، كرّر أبّة، يطارد آخر الجرذان في أقاليم المملكة.

وعلى الغمر العظيم...

شعّ الشعار الفوسفوري معلناً عن مَقْدم ريحان مكلّلاً بالنّصر.

وانشقّ شعار المملكة عن بيضة الملك الأخيضر.

قفز الملك الأخيضر من بيضته، وقفز ريحان من بيضته، في وقت واحد.

أفسح ريحان وقططه للملك؛ فتقدّم مع وزرائه وأصدقائه وضيوفه وبقيّة الجرحى الذين عالجتْهم ننجال ورفيف الماء والوصيفات.

تقدم الملك وقال:

ـ أنا القُفْلُ الأخضر لمملكة زرقاء!

تقدّم نحوه ريحان وقال:

ـ أنا مفتاح المملكة وخادم القفل الأخضر!

تعانق الملك وريحان فانبثقت ألوان وأضواء من أعماق المياه، وبعدها بدأت قبّة القصر تطفو قليلاً قليلاً، حتى ظهرت الشّرفات والطّوابق، والحديقة: تقافزت السّرطانات والقريدسات والجعلان والدّواجن، وكلّ شيء: لاح تانغو يقفز خلف أرنب أسامة المبلول.

وفي أعلى صخرة تُشرف على القصر، قال ديدحان مفكّر الامبراطورية:

ـ الآن يبدأ عمل الفكر!

مكافآت وعقوبات

«محكمة!

باسم الشعب المسالم! باسم مملكة الأخيضر!» صرخ قَصْعُون الأكتع.

ـ المكافآت أوّلاً، قال الملك.

وبصوت أجشّ نطق قاضي القضاة، قصعون الأكتع:

أولاً، يحتفظ آسر بالقوة السحريّة في رمحه المسماريّ حتّى عودته، وذلك مع تبرّعه للمملكة بكلبه تانغو، وألعابه الأخرى، وكذلك بأرنب أسامة (هُتاف ترحيب!)

ثانياً، تُكَافَأ القطط بإعادتها إلى الدَّلال حتى تتوالد أكثر، ويحصل كل فرد من الشعب على قطّة، مع التوصية بتدريبها على الجوع احتياطاً.

ثالثاً، يُعفى حامل الفخاخ من كلّ ما سبق، ولا يُكافأ على جهوده في ما لحق.

رابعاً، نظراً لفشل الشاعر والموسيقار والرسام، في محاربة الجرذان، بالكلمات والألحان والألوان، واكتفائهم بمراقبة سير الأحداث، والتّعليق عليها بعد معايشتها بالوجدان، فقد رأت المحكمة أن يتولّوا، مع مفكر الامبراطورية، مهمّة إعداد وإنجاح حفلة النصر. (هتاف ترحيب).

خامساً، يُكَافَأ كلُّ من شارك في الدفاع عن المملكة، من أهلها، بزيارة آسر هذا، وكلّ آسر آخر، إلى بلاده؛ ومنذ اليوم لن تقتصر هذه المهمّة على ريحان وأبّة وحدهما، علماً بأنّ حجرات اللمس، والسمع، والضوء، والأجسام الطافية، والحركة الغافية، جاهزة لتسهيل مهامّهم. (هتاف! هتاف! هتاف!)

ـ العقوبات ثانياً، قال الملك.

ونطق قاضي القضاة قصعون الأكتع:

أوّلاً، يُعاقب الجندي الدوّاس برعاية القطط، والسّماح لها بأن تلحس رائحة السمك التي تفوح منه، ليلاً ونهاراً، حتّى عودته إلى بلاده.

ثانياً، يُطلى جسم خنصر الحنّاء بشتّى ألوان الزهور الواخزة والمهيّجة، وتُعلّق على جسمه كلّ الساعات التي وُجدتْ في الحديقة داخل صندوق، حتّى يشارك في تسلية قرى المملكة.

خرج الجمهور من القاعة وهو يهتف:

ـ عاش الملك الأخيضر... ها... عاش! عاش قصعون الأكتع... ها... عاش!

احتفالات المملكة(1)

أُعلن عن بدء الاحتفالات في شتّى قرى المملكة. فأشرقت الشعارات ورقصت الألوان وتبادلت الزيارات في ما بينها.

أما في قصر الأخيضر فإن الشاعر والموسيقار والرسام الذين فشلوا في محاربة الجرذان بأجمل الكلمات والألحان والألوان، أعدّوا أكبر حفل زيَّنَ المملكة، ووَشَم أفراحها وانتصاراتها في القلوب.

سّجل تويتو أجواء الاحتفال بكلّ أمانة، وأقلامه ترقص على الدفتر الكبير في الأروقة. جاءت شعارات القرى من كلّ مكان وانشقّت في ساحة القصر، حيث احتشد الشعب، وقفز منها أمراء أوفياء وأميرات. وجاءت الوفود المهنّئة، فخطب فيها الملك، ثم قال مفكّر الامبراطورية في كلمته التاريخية: «الفكر والفنّ يسبقان الحروب ويلحقان بعدها!»

عاد كشبور إلى يقظته، فأمره الملك بتقليد الجرذان في حركاتها حتّى يتخلّص من تأثيرها الوهميّ البعيد؛ فرقص كشبور مع ألوان وأضواء تشكّلت جرذاناً وبدأت تقفز على جسمه ثم تتساقط هاربة منه.

وعدّد أبّة سبع فوائد للقطط تأتي من أرواحها التسع.

وقال آسر عن القطط إنها تفسد بفساد البلدان.

وتساءلت رفيف الماء، وهي تشارك في الاحتفال بفستان القطيفة الحمراء:

«كيف يمكن للمرء أن يصير قطة؟»

ـ كلّكم سوف تتحولون إلى قطط في زيارات مُقبلة، وَعَدَ الملك.

ـ وهل ستكون كلّها قططاً سوداء؟ سأله آسر.

ـ إلا رفيف الماء، ردّ الملك الأخيضر، سوف تتحوّل إلى قطة حمراء!

ـ ولكنْ، لا وجود لقطط حمراء اعترض آسر.

ـ لتكنْ زرقاء!

ـ ولا وجود لقطّة زرقاء!

ـ اللعنة! هتف الملك مخاطباً ريحان، ألهذا الحدّ تفتقر القطط للألوان؟

ـ ألوانها في عيونها، أجاب ريحان.

ـ إذاً، سوف تتحوّل رفيف الماء إلى قطة سوداء، ذات غرة بيضاء، وعينين خضراوين، قال الملك.

احتفالات المملكة (2)

ظلّتْ رفيف الماء تتحرّك صغيرةً بين حجرات القصر، وأروقته، ومخابئه المائيّة، مزهوّةً بالمستقبل؛ لأنّها ستتحوّل فيه إلى قطة!

وفاجأ الشاعر الأبرق كردوس مستمعيه بقصيدة جديدة يقول فيها:

فقّاعَةَ الهواءْ
وقطرةَ السَّمّاءْ
أيا رفيفَ الماءْ
قد غَارَتِ الألوانْ
والشِّعْرُ والألحانْ
من حُمْرَةِ الفستانْ
اِحْمَرَّتِ الوصيفَهْ
قُنْزُعَةُ اللّطيفَهْ
من لَمْعَةِ القطيفَهْ
تَحَوَّلي طويلَهْ
وحَرِّري الجديلَه
والخطوةَ الخجولَه
استبدلي الفستانْ
وجرِّبي الألوانْ
برقصها الفتّانْ
يا قطتي...
يا قطة الزمانْ.

خجلت رفيف الماء أكثر. وضعتْ يديها المتشابكتين في حجرها وخفضتْ رأسها، فصعد لون القطيفة الحمراء إلى خدّيها. قال آسر: «ما أجملها!» وردّد الشعب أغنيتها.

احتفالات المملكة (3)

تواصلت الاحتفالات وشارك فيها إصبع الحناء مصبوغاً بالألوان، يرقص وساعاته معلّقة إلى جسمه: تيك تاك! دونغ، دانغ! تيك دانغ!

أما الجندي الدوّاس فقد استلقى عارياً على أريكة؛ يداعب القطط مشمئزاً، وهي تلحسه، فيضحك ويرفس بينما جلده يلين ويلمع، وتبرز عروقه حتّى آخر سمكة تسبح في دمه تاركةً رائحتها للقطط.

أعلن الملك عن سباق بين القريدس والسلطعون والجعلان بمرافقة عزف على النّاي أدّاه الموسيقار كعباشي الكراولي. وأُجريتْ مباراة أخرى في حلّ الألغاز تفوّقتْ خلالها تلك القادمة من خارج المملكة على لسان آسر.

وقرأ الشاعر الأبرق كردوس قصائد جديدة عن «المملكة التي انبثقتْ ثانية من ماء الغمر العظيم» قال في إحداها:

طوط! طوط! طوط! صبّاطي بلا خيوط.

طاط! طاط! طط! صبّاطي بلا رباط.

طيط! طيط! طيط! زْلقتْ تحت الحيط.

ورسم الزاهي بوترزيزة لوحة جداريّة كبيرة في رواق القصر تُمثّل جوانب من الحياة اليومية في المملكة؛ فاصطدم أبّة وكشبور وتويتو ورفيف الماء بصُوَرِهم على الجدار. وأسقطتْ الوصيفة قنزعة طبق الفواكه لأنّها رأت أمامها قنزعة أخرى على الجدار تحمل طبق فواكه وتبتسم لها.

وفَصَلَ حامل الفخاخ رأس تويتو عن جسمه ثم أعاده بحركات سحرية، ثم بلع سرطاناً وأعاده حيّاً.

أما آسر فقد كشف بدوره عن القوى السحريّة في رمحه فكان يوجّه الأشياء والأشخاص إلى الاتجاه الذي يشير إليه بعصاه.

كانت الاحتفالات تجري مصحوبةً بإيقاعات الموسيقار كعباشي الكراولي وفرقة الوصيفات؛ فأبدع مقطوعات موسيقية ضاحكة من أجل مرافقة لحْسِ القطط للجندي الدوّاس سمّاها «القطط اللاّحسة والجندي الملحوس». كما عزفت فرقته مقطوعات أخرى هي «سباق القريدس» و«الرخ وسط الغيوم» و«ملحمة النصر في مملكة الأخيضر» غير أنّ معزوفة «رقصة الجرذان» تسبّبت في استعادة قشعريرة الأبدان، فأعاد إليها الموسيقار كعباشيء الكراولي الطمأنينة والفرح بمعزوفة اسمها «الساعات الغرّاء في رقصة خنصر الحنّاء».

لا تودّعْ مَنْ يسكن فيك

اكتملت أيّام الإقامة في مملكة الأخيضر وحان وقت الوداع؛ فوزّع الملك الأخيضر هداياه على المسافيرين:
حصل الشاعر الأبرق كردوس على علبة يفتحها فتخرج منها روائح من مملكة الأخيضر.
ونال الموسيقار كعباشي الكراولي علبة أخرى يفتحها فتخرج منها علامات المملكة التي يستطيع الموسيقار أن يدّون بها ما شاء من ألحان.
وفرح الرسام الزاهي بوترزيزة بفرشاة ترسم الرّيح والضوء والرائحة.
أما الجندي الدوّاس وخنصر الحنّاء وحامل الفخاخ، فقد مهّد الملك الأخيضر لهداياهم بكلمة قصيرة قال فيها: «كُنْتُمْ قَدَرَ المملكة الذي خلّصها من الجرذان!»
فحصل حامل الفخاخ على ميدالية تمثّل طائر الوقواق الذي يبيض في عشّ غيره.
وأحرز الجندي الدواس ميداليّة تمثل جنديّاً هارباً من القطط إلى الجرذان.
وفاز خنصر الحنّاء بساعة ترقص فيها الألوان وتعزف الألحان كلّما أشار عقرباها إلى الساعة الخامسة ما حرّرش!
ثم قال الملك الأخيضر:
ـ الدفتر الكبير، هديّة آسر!
احتجّ قصعون قاضي القضاة قائلاً:
ـ دفتر المملكة يبقى في المملكة!
فرفع الملك الأخيضر يده اليمنى وقال:
ـ دفتر المملكة يبقى في المملكة، نعم! أما هذه فنسخة آسر التي دوّنها تويتو بإشراف بريبش راصد الكنوز!
تقدّم آسر وتناول هدّيته. وكانت في يده اليسرى هديّة أخرى نسيها الملك،أو تناساها: الرّمح السحريّ.
عزفت الفرقة مقطوعة وداع؛ لحّنها الموسيقار كعباشي الكراولي وجعل عنوانها «لا تودّعْ من يسكن فيك»، وكانت معزوفة جدّ مؤثرة حتّى أن رفيف الماء شرقت بالبكاء، فأسكتها آسر، ومسح دموعها بأصابعه قائلاً: «لا تبكي يا عزيزتي رفيف! سوف نلتقي هناك...»

قَرْيَتَان على تخوم المملكة

رافق ريحان وأبّة أصدقاءهم، في رحلة العودة، بعد احتفالات سكّان المملكة بتوديعهم.
وفي الطريق سأل آسر أبّة:
ـ هل نعود عبر المنحدر الأزرق الذي جئنا منه؟
ـ منه جئنا، كرّر أبّة، لكنّنا منه لا نعود

ـ آه! لماذا؟ سأله آسر.

ـ لماذا؟ آه! كرّر أبّة قالباً كفَّيْهِ في الهواء.

تدخّل ريحان في الحوار موضّحاً:

ـ المنحدر الأزرق هو منحدر المجيء، وعندما تنظرون إليه من هنا، عائدين، لا يظلّ منحدراً، بل يصير مرتقى!

ـ إذاً، سوف نتسلّقه، علّق آسر.

ـ كلاّ! ردّ ريحان، ليس هناك تسلّقٌ الآن، لابدّ من النّزول!

ـ وهل نحن فوق حتى ننزل؟

ـ مازالت أمامنا قريتان تابعتان للمملكة، ولابدّ من اجتيازهما قبل أن تتأكد بنفسك من كلّ شيء.

ـ وما اسم القريتين؟

ـ الأولى قرية النسيان، والثانية قرية البهاق، أجاب ريحان.

كان بقية الأصدقاء العائدين يسيرون في الخلف: الدوّاس يشكو من الشوك بسبب رقّة جلده الذي ليَّنَتْه ألْسِنَةُ القطط، إصبع الحنّاء جائع، وحامل الفخاخ يخبش أنفه. أما الشاعر والموسيقار والرسام فقد تعالت أصواتهم وبدؤوا يتشابكون بالأيدي ويتراكلون بالأقدام.

ـ هدوءاً حتّى نبلغ قرية النسيان! صاح بهم ريحان.

قرية النسيان

استقبلتهم قرية النسيان بألوان باهتة متدرّجة من الأبيض إلى الرمادي، مع لوينات بعيدة لا تكاد تُدرك بالعين. حتى رقصة الألوان الرمادية في قرية النسيان كانت متباطئة ومتناومة. انشقّت بيضة القرية عن بيضة رمادية؛ انشقت بدورها عن بيضة رمادية أصغر؛ فأخرى أصغر...

ـ هيّا لا تنتظر أكثر، نادى ريحان آسر، لن يخرج شيء غير البيض المتدرّج من اللون الرمادي، حتى تكفّ عن تمييز أصغرها حجماً.

ـ لماذا؟ سأله آسر.

ـ شعار المملكة بدوره ينسى المجيء إلى هذه القرية، أليست قرية النسيان!

بعد مسافة قصيرة اعترض سبيلهم رجل يلطم رأسه بحذائه.

ـ هذا أمير القرية، أوضح ريحان، يريد أن يعرف مَنْ هو، بعد أن نسي أنه الأمير.

اقترب الجندي الدواس من أبّة وسأله:

ـ هل ستأتي شاحنة الفحم؟

ـ الفحم شاحنة، ردّ أبّة، وهل ستندلع حرب أخرى؟

ثم بدأ الجندي الدواس يقوم بحركات غريبة، ويصغر، يصغر، ويصغر أكثر. ولاح خنصر الحنّاء يتكوّم على خنصره، ويقضمه صائحاً: «أنا جوعان! أنا جوعان!» وصار الشاعر يظهر بين الأعشاب ويختفي. أمّا حامل الفخاخ فقط سقط في حفرة غير موجودة الآن، وربّما جرّ معه الرسام، والموسيقار الذين لم تبقَ منهم إلاّ هَدَايَاهُمْ على الأرض...

ـ ماذا يحدث؟ صاح آسر مذهولاً، لماذا يختفون كلّهم؟

ـ هذه مشكلة قرية النسيان، أجاب ريحان، هناك من يأتي ويجتازها بسلام، وهناك من يغيب فيها، ألم تلاحظ بأن أميرها نفسه نسيَ نفسه!

ـ وهل يغيبون إلى الأبد؟

ـ ليس هناك غياب أبديّ ما دامت هناك ذاكرة، أجاب ريحان، لكنْ أيّ ظهور جديد لهم، يتوقف على شروط كثيرة.

التفت آسر إلى خنصر الحنّاء فوجده قد أكل نفسه بالتّمام والكمال، ولم يبقَ منه، قريباً من كتف أبّة، في هذه اللحظات الأخيرة، سوى فم يمضغ ولسان يتذوّق ما أكله، ثمّ يتذوّق نفسه رويداً رويداً، من دون ألم، من دون ألم...

قرية البُهَاق

خرج آسر من قرية النسيان، فبدأ ينسى ملامح أصدقائه؛ لكن أصواتهم ظلّت ترنّ في أذنيه.

ـ ليتني جئت بتانغو... ليرافقني! تنهّد آسر.

ـ لا تندمْ على شيء، نصحه ريحان، ها هي ذي قرية البُهَاق.

ـ البهاق قرية، أضاف أبّة، لكنّها قرية لا تقتصر على البهاق.

سار الثلاثة بمحاذاة نهار العودة. لاحت المياه متدفّقةً مع فقاعات هوائية متراقصة. سمع آسر همساً، ثم إيقاعاً تحت الماء؛ يشبه نقرات كعب حذاء على الحصباء. ابتسم. مع أنّ ذلك لم يذكّره بشيء محدّد، إلا خفّة الإيقاع.

ـ الأمراض كلّها تبدأ من هنا، قال ريحان.

ـ أيّ أمراض؟ سأله آسر.

ـ أمراض أي، كرّر أبة، ألا تعرف الأمراض؟

ـ الحازوقة، والغازات، والزكام، والصداع، والبهاق... أجاب ريحان.

ـ والبهاق والصداع، كرّر أبة، وما هو أخطر من ذلك أيضاً!

ـ ولماذا تكثر الأمراض في هذه القرية؟

ـ لأنها قرية حدودية، أجاب ريحان.

انتبه آسر إلى رجل يمرّ مقترباً منهم، فحذّره ريحان:

ـ لا تقتربْ منه! إنه أمير البهاق يتوكّأ على عصاه!

لكنّ الأصوات لم تترك آسر؛ حتى أنه لم يكفّ طيلة الرحلة، عن الالتفات:

ـ كأنّ آخرين كانوا معنا...

ـ طبعاً! كانوا معنا، أكّد له ريحان.

ـ معنا كانوا، كرّر أبة.

ـ وأين هم الآن يا ترى؟

ـ أصواتهم تعبر معك، أجاب ريحان، لكنك لن تراهم.

ـ تراهم لن، أكّد أبة.

مشكلة حدودية!

بعد مسيرة أخرى طويلة؛ أحسّ معها آسر بالتّعب، وضع أبّة يده على كتف آسر مداعباً:

ـ ألستَ قويّاً؟ قويّاً ألست؟ أم تريد منّي أن أحملك على كتفي؟

ـ لقد وصلنا، قال ريحان، والمشكلة، الآن حدوديّة بحتة.

ـ وما هي هذه المشكلة؟ سأله آسر.

ـ هناك بوّابتان للخروج من حدود المملكة، ولا نعرف أيهما الباب المفتوح حاليّاً.

ـ حاليّاً المفتوح، كرّر أبة، هناك باب القاعدة الزرقاء التي يحرسها الحرس الأزرق، نحن نسمّيها بوّابة الخصب...

ـ وهناك باب الاستثناء الأحمر، أضاف ريحان ونحن نسمّيه بوّابة الإمبراطور، وله حرسه أيضاً.

ـ أيضاً حرسه، كرر أبّة.

ـ نذهب أوّلاً إلى بوّابة الخصب لأنّ حرسها متساهل، اقترح ريحان، وإذا كانت البوابة مغلقة عند قاعدة الحرس الأزرق، سوف نلتجئ إلى بوابة الإمبراطور.

كانت بوابة الخصب موصدةً فعلاً.

ـ من النّادر جدّاً أن يغلقها الحرس الأزرق، قال ريحان، لذلك قصدْنَاها أوّلاً، على أية حال ستوفّر على نفسك مشاكل غيرك...

ـ غيرك مشاكل، كرّر أبّة وأضاف: هيا بنا إلى بوّابة الإمبراطور إذاً!

ـ أشعر بالجوع، قال آسر.

ـ كلّ ما تطلبه تجده في الدفتر الكبير، أوضح ريحان.

فتح آسر الدفتر الكبيرة، واكتفى بجرعة منعشة من هواء مملكة الأخيضر؛ الهواء الذي يكاد يؤكل أكلاً، ثم حاول أن يتوغّل أكثر في صفحات الكتاب، لكنّ ريحان قاطعه:

ـ لا تتوغّلْ أكثر! اقتربَ وقتُ الخروج!

ـ الخروج وقت! كرّر أبّة.

وداع وانتظار

وقف الثلاثة أمام بوّابة الإمبراطور. لم يكن يظهر عيها أية علاقة بالأبواب: مجرّد صَدْع جغرافي يأتي بالأصداء.

ـ ما هذا الضجيج؟ تساءل آسر.

ـ كلّهم في انتظارك، أجاب ريحان.

ـ انتظارك في كلّهم، كرّر أبّة.

ـ وهل سأذهب وحدي؟

ـ كما جئتَ وحدك، تذهب وحدك، أجاب ريحان.

ـ أنا جئتُ وحدي؟ وأنتما؟ وهم؟

ـ أما نحن فنعود من حيث جئنا، وقد نعود لمرافقة غيرك.

أحسّ آسر بالفَقْد. أمسك بكتابه في يده اليمنى، ورمحه السحريّ في اليسرى. تملَّكَتْه رجفة تسبق البكاء.

ـ وفّرْ دموعك، قال ريحان، ستحتاج إليها!

ـ أدركتُ منذ البداية أنكم لا تعرفون الألفة، ردّ آسر بنبرة من يغادر، ألا يُفتح هذا الباب الذي تتحدّث عنه؟

ـ لابدّ أن يفتح، أجاب ريحان، إذا كانتْ بوابة الخصب موصدةً فإنّ باب الإمبراطور هو الحلّ الوحيد، سنتركك الآن، هيّا وداعاً!

ـ وداعاً هيّا، كرّر أبة.

ازدادت الأصداء في ما وراء الصّدع، أحسّ آسر باقتراب أشعّةٍ من نوعٍ آخر؛ تعشي بصره، وتزعجه، تماماً مثل ديدحان عندما يخرج من صخرة المملكة. «ما أضيقَ هذا العالم!» قال آسر قبل أن ينسى كلّ شيء.

إنّه يغادر مملكة الأخيضر فعلاً. ضجيج وروائح. عليه الآن أن يجهّز رمحه وكتابه، استعداداً للإعلان عن حضوره، بين ذويه، بصيحة مُدَوِّيَة تجعله ينفجر بالبكاء، فلا يغتسل من بكائه وتعبه إلا... بحازوقة طويلة تميّز كل وليد جديد.

البداية المفترضة

جدجودة

نامت جدجودة في النهار، ثم نامت في الليل، ثم نامت في النهار، ولم تستيقظ، لم تتألّمْ بصوتها العالي.

صاحتْ ماما باكيةً:

ـ أُمُّك منّانة ماتت! ماتت أمّك منّانة!

أنا أيضاً بكيت حتى جاء بابا وقال:

ـ إليه راجعون!

رحلتْ جدّتي وتركتْ لي منديلَها.

سأذهب مع بابا

قال لي بابا:

ـ ماما تعبتْ عندما انتقلْنَا من إقامة الورود، في الطابق الرابع، إلى المحيط الهادئ؛ حملتْ أشياء ثقيلة على بطنها.

ـ أنا سقطتُ من السّرير، على بطنها، عندما كانت مستلقية على الأرض؛ فصاحتْ وشتمتْني البارحة.

ـ الذّنب ليس ذنبكِ، قال بابا، حتى موت جدّتك تسبّب في تعب ماما. لقد تركناكِ نائمة وحدك وخرجنا إلى المستشفى في الساعة الثانية ليلاً.

ـ ستلدُ لي أخاً اسمه نَمِير، أليس كذلك؟

ـ آسر... اتَّفَقْنا أن اسمه آسر.

ـ نعم، لكن اسمه الحقيقي، اسمه الآخر، نمير.

ـ ليس له اسم آخر، سنناديه آسر مثل آسرة.

ـ لماذا لم تلد ماما حتّى الآن؟ متى نذهب إليها؟

ـ آسر لا يخرج بسهولة، ولابدّ من عملية قيصريّة.

ـ عملية ماذا؟ عملية مَنْ؟

ـ سيشقّون بطنها، أخوك جالس ولا يريد الانقلاب على رأسه. يريد المجيء إلى الدنيا جالساً.

ـ أكان يجب أن ينقلب حتى يأتي إلى الدّنيا؟

ـ كلّ طفل يأتي برأسه أوَّلاً.

رنّ جرس الهاتف فردّ بابا؛ وعندما أنهى المكالمة قال لي:

ـ تعالي معي يا آسرة

ـ إلى أين نذهب؟

ـ إلى آسر!

هاهو ذا آسر!

يشبه العجوز. بدأ يشبع بالحليب ليملأ له جلده. يده لا تمسك إلا بالأشياء التي تأتيه وحدها: إصبعه الكبيرة، وطرف اللحاف، وحنفيّة الحليب، وكذلك إصبعي أنا، عندما أقرّبها من يده.

أظافره صغيرة، جدّاً. أمّا ظفر الخنصر فهو نقطة بيضاء. أظافره ترتعش فيها كسور صغيرة وقلامات مائلة؛ هي التي تخبش الإصبع الكبيرة وتجرح انفه الأفطس ثم خدّيه، لأنه يبحث عن الإبهام كي يرضعه، بعيداً عن الأصابع الأخرى النائمة. الخنصر تغطَّى بإخوته ونام. حتّى الإبهام نام فوقهم،الآن، نومة مائلة. تمطّى آسر فهربت الأصابع. فتح عينًا واحدة. رأى الضوء، ففتح عيناً أخرى. تثاءب بفم مائل فرسم دائرة بيضويّة.

أنفه الأفطس مجروح «هيءْ! هيءْ! هيءْ!» شهّيقَة، حازوقة. أنفه يهتّز وفمه مفتوح كالسمكة. يتثاءب حاجبه يفكّر. يبتسم ابتسامة مائلة إلى الأسفل والشفة العليا عليا. التحقت السفلى بالعليا. نام ذقنه في جُحْره. فمه مغارة بلا أسنان فلا يكسر الفستق ولا الحلوى.

كلّ حازوقة «هيء» تُطلق أصابعه مفرودة. صوته يأتي مثل حجلة تطلق أصواتاً خفيفة في عشّها الأرضي. يتحرّك رأسه من قاعدته، من العنق، مثل الصّبار، ينقذف ثم يعود، في انتظار «هيءْ» حازوقة أخرى.

قلبُه الآن يدقّ في رقبته، ورأسه يذهب ويجيء. يبكي بلسانه:

ـ اسكتْ يا آسر! هل تريد الحليب؟

زيارة بوشويشة(1)

أين أنتِ يا جدجودة؟ أين أنتَ يا بوشويشة؟ أنا وحدي أنادي نعم أنا آسرة وحدها تنادي.

تشمَّمْتُ منديل جدّتي فخرج لي منها بوشويشة.

ـ لماذا غبت كثيراً يا بوشويشة؟

ـ لأنّكِ لم تتذكّريني.

ـ أنا أذهب كلّ يوم مع بابا لرؤية ماما وآسر. أين ذهبتَ عندما نسيتُك؟

ـ ذهبتُ أبحث عن الرّائحة.

ـ هل وجدتَ جدجودة؟

ـ جدجودة ذهبتْ إلى الشّجرة.

ـ رأيتها فوق الشّجرة...

ـ جسمها تحت الأرض، ورائحتها ذهبت إلى الشجرة.

ـ وهل تراني؟

ـ تراك، لكنها بدأت تفقد الرّائحة.

ـ أين تذهب رائحتها؟

ـ تأخذها الأرض وتُعطيها للشّجرة.

زيارة بوشويشة(2)

ـ تعال، لقد عادتْ ماما من المستشفى!

ـ وأين هو آسر الآن؟

ـ تعال، يا بوشويشة، إنه هنا، في هذه الغرفة، ينام معهما، وأنا أنام وحدي دائماً.

ـ انظري كيف ينام، يا آسرة، مع ذلك يفتح عينيه واسعتيْن، ويحرّك بُؤْبَؤَيْه إلى اليمين وإلى اليسار؛ حركة رتيبة لكنها سريعة.

ـ لماذا يفعل ذلك وهو نائم؟

ـ لأنّه يراني.

ـ هو يراك الآن؟

ـ نعم يراني، ولا يراكِ.

ـ لماذا يراكَ أنتَ، ولا يراني أنا؟

ـ لأنّني من مملكة الأخيضر طبعاً!

ـ هل يحلم بها الآن؟

ـ ويرتّب بيتَ المخّ في هذا العالم!

ـ لا يتنفّس مثلنا، يعبّ الهواء ثم يأكله ويمضغه!

ـ هكذا نفعل هناك.

ـ هو لا يفهم شيئاً ولا يتكلّم.

ـ كلّ مَنْ يأتي مِنْ مملكة الأخيضر يريد أن يتكلّم...

ـ لكنّه لا يتكلّم!

ـ عندما يفتح فمه ليقول شيئاً؛ يقترب منه حارس أزرق من مملكة الأخيضر، ويضع إصبعه على شفته السفلى: هسْ!

ـ نحن لا نرى الحارس؟

ـ لا ترونه، لكنْ، انظري إلى أثر إصبعه، تحت شفة آسر. أَرَأَيْتَ تلك الغمّازة الصغيرة؟

ـ نعم.

ـ تلك هي بصمة إصبع الحارس الأزرق الذي يقول له: «هسْ! لا تُخْبِرْهُمْ بأيّ شيء!» كلّ الأطفال يولدون بتلك الغمّازة، غمّازة الحارس الأزرق.

ـ لماذا يُغمض عينيه ثم يفتحهما وهو نائم؟

ـ يفعل ذلك ليتذكّر، وعندما يفتحهما يقول: «آه! هذه هي الدنيا إذاً!»

زيارة بوشويشة(3)

ـ آه! جئتَ يا بوشويشة مرّة أخرى!

ـ نعم لأنّكِ تفكّرين فيَّ! ما أخبار آسر؟

ـ إنه يغضب كثيراً، ويبكي كثيراً، ويرضع كثيراً، وينام كثيراً...

ـ كلّ شيء عنده كثير، نعم، حتى أمّه: عنده أمّ يسمعها، وأخرى يراها، وأخرى يلمسها، وأخرى يشمّها... ثم تجتمع الأمهات كلّهن مثل زوارق في بحر واحد، هو بحر الأم.

ـ لماذا يرى أمّه هكذا؟

ـ ألم أقل لكِ بأنه يرتّب بيت المخّ في هذا العالم؟ في السّابق كان كلّ شيء مُؤَمَّناً. لا حاجة للنّداء، لا حاجة للطلب، ولا حاجة حتّى للحبّ ما دام لا يوجد كُرْه!

ـ نسيتُ أن أخبركَ بأنه لم ينقلب، وجاء جالساً، كما أخبرني بابا!

ـ أعرف! أميرة المقلوبين هي السبب! لم يُعرْها أيّ اهتمام في قَصْر الملك الأخيضر، فغارَت منه ومن رفيف الماء. هي التي أعطت الأوامر للحرّاس بإغلاق بوّابة الخصب.

ـ وماذا فعل لها الأخيضر؟

ـ الأخيضر مثل الأعمى، ينظر بعينين متوجّهتين إلى الداخل.

ـ هل شممتَ رائحة آسر؟

ـ رائحة الرُّضّع متشابهة.

ـ أنفه أفطس!

ـ يأتون بأنف كبير، وحاسة شم إضافية، يفقدونها فيما بعد.

ـ حفرة هنا في أعلى رأسه.

ـ سوف تنغلق عندما يكفّ عن النظر إلى الوراء، والوراء الآخر!

ـ أين؟

ـ حيث الجدّة، وحيث المملكة.

ـ وضعت إصبعي هناك، فصاحتْ ماما «انتبهي ستقتلينه!» أنا لا أريد قتله. لقد لبستُ حفّاظته، البارحة، وبلتُ فيها!

اختفاء بوشويشة

ـ دقْ...دق...دق! طرقتْ جدجودة الباب.

ـ مَنْ بالباب؟ سألتْها السماء.

ـ أنا جدجودة منّانة، قفزت من الحفرة إلى الشجرة...

ذهبتْ جدجودة وتركتْ لي منديلها... كنتُ أخبّئه تحت المخدّة. أشمّه فيأتي بوشويشة.

لكن بوشويشة كَفَّ عن المجيء الآن.

ـ ماما! ماما! أين منديلي؟ أين منديل جدّتي؟ مَنْ أخذه من تحت مخدّتي؟

ـ ها هوذا يا آسرة، لقد غسلتُه لكِ، عودي إلى النوم!

ـ أين الرائحة؟ أين رائحة جدجودة؟ لماذا غسلتِ الرّائحة؟

أنا أبكي...

هكذا انقطع بوشويشة عن المجيء: أنا أبكي، أنا أبكي، أنا أبكي... مَنْ سيُعيُنني على الحكاية؟

جدجودتي الزَّهْرَة
خافتْ م الحفْرَة
ملّتْ م الحَصْرَة
وطَلْعَتْ للشَّجْرَة
جدجودتي يا جَدَّة
يا ريحة التَفّاحَة
خبّيتك تحت المخّدة
سِرْقَتّك الصَّيَّاحَة
جدجودتي الفَوَّاحة
غَسْلَتْهَا البَقرَة
عَصْرتْها قطرة قطرة
وأنا في السَّاحة...

صندوق كلام

آسر يدور حول سرّته. يرى. يسمع. يشم. يأكل. يبكي. يشدّ الغطاء لكنّه لا يتعلّم شيئاً. لا يتكلّم. مازال صندوقاً، وكلّه كلام. يستطيع أن يتكلّم في الدّاخل ويتثاءب ويضرط.

لو عادت جدجودة لرضعتْ من حليبه.

هربت جدجودة إلى مملكة الأخيضر: دق! دق! دق! وجدتْ قصر الأسماء أحمر.

عندما اقتربتْ جدجودة من القصر صارت حمراء مثل أصابعي على هذا المصباح اليدوي، خافت جدجودة من دمها. لابدّ أن يكون اسمه آسر، لأنّ جدجودة تخاف من نميرة ونمير.

جدجودة: دق! دق! دق!

ريحان: مَنْ يطرق الباب؟

جدجودة: أنا جدجودة.

ريحان: لماذا جئتِ؟

جدجودة: جئتُ لرؤية آسر.

ريحان: آه آسر!

أبّة: آسر! آه!

ريحان: أنتِ جئتِ وهو خرج!

أُمُّهُ سَمَكَة

ـ ماما! اِحكي لي حكاية!

ـ اذهبي للنوم.

ـ لماذا ماتت جدتي؟ لا يأتيني النوم ولا تأتيني حكاية.

ـ تمدّدي على الفراش وأغمضي عينيك وسوف تنامين.

ـ احكي لي حكاية حتى يجيء النوم.

ـ أنا مشغولة بأخيك.

ـ لماذا تحبّ الأم ابنها وتأكله؟

ـ الأم لا تأكل ابنها، هو الذي يكبر في بطنها.

ـ لكنك أكَلْتِ الذي كان في بطنك وجئتِ بآسر من المستشفى!

ـ جاء من مملكة الأخيضر، كما حَكَتْ لك جدّتك.

ـ وذهبتِ للإتيان به من المستشفى؟

ـ أوف! جاء من بطني.

ـ كيف دخل إلى بطنك؟

ـ دخل مع السَّمَك!

ـ عندما سَبَحْنَا في البحر؟

ـ نعم.

ـ لماذا سبحتُ أنا وبابا ولم نأتِ بآسر مثلك؟

ـ اذهبي للنوم!

ـ لماذا سبحتُ أنا وبابا ولم...

ـ قلتُ لكِ اذهبي للنوم، يكفي الآن، اذهبي للنّوم، لم يأت من البحر؛ أتى من مملكة الأخيضر. هيا اذهبي وإلاّ...

خفتُ وذهبت إلى فراشي. الحارس الأخضر جاء بسيفه. هيّا اُخرجْ يا آسر اُخرجْ خرج آسر. أمّه سمكة كبيرة لا تحكي حكاية. لذلك بدأ ينفخ في ثديها كالزمّارة ولا يرضع. ها هوذا يبكي. ستذهب إليه أمّه السّمكة الكبيرة. أنا أيضاً أذهب إليه لأرى...

شَقُّوني شَقّاً

ـ ماما هل يبكي لأنّه يريد اسم نمير؟

ـ عُدْتِ؟ ألمْ أطلبْ منكِ أن تنامي؟ ألا يكفيني هَمُّ أخيك؟

ـ لا يأتي النوم، هل يريد اسم نمير؟

ـ اسمه آسر مثلك!

ـ صحيح أنه جاء من مملكة الأخيضر؟

ـ نعم! نعم! نعم! جاء من مملكة الأخيضر، مثلك أنتِ...

ـ مثلي أنا؟

ـ نعم! كنتِ هناك وجئتِ قَبْلَهُ.

ـ لماذا جئتُ قَبْلَهُ؟

ـ لأنّه جاء بعدك؛لكنّ الفارق الوحيد أنه جاء من باب الإمبراطور، وأنتِ جئتِ من باب الخصب.

ـ أنا أحبّ باب الإمبراطور! مَنْ هو الإمبراطور؟

ـ وما همّكِ أنتِ إذا شقّوني شقّاً؟ كان باب الخصب مفتوحاً أمامك...

ـ وهل جاء معه ريحان؟

ـ كلاّ، ريحان تركه وبقي هناك.

ـ لماذ بقي هناك؟

ـ لكي يرافق أطفالاً آخرين ويعلّمهم.

ـ ماذا يعلّمهم؟

ـ يعلّمهم كيف يتغلّبون على الحازوقة والغاز والقيء الصغير...

ـ والقيء الكبير أيضاً؟

ـ نعم؛ والقيء الكبير أيضاً.

ـ والأمراض أيضاً؟

ـ نعم؛ والأمراض أيضاً.

ـ والجرذان أيضاً؟

ـ نعم؛ والجرذان أيضاً.

ـ لماذا الجرذان؟

ـ لستُ أدري... هيّا... أذهبي للنوم... هيّا...

قطّتي السّوداء ذات الغرّة البيضاء...

ها هي ذي قطتي السوداء ذات الغرة البيضاء تلتحق بي إلى الفراش. عيناها الخضروان تومضان.

والغرة البيضاء في رأسها، تلمع في الظلام.

حرَّكَتْ رأسها ثم دَسَّتْ أنفها تحت المخدّة.

بحثتْ مثلي عن منديل جدّتي.

لم تجدْ رائحتها فأسندتْ رأسها إلى كتفي.

أغمضتْ عيناً واحدة.

أغمضت الثانية.

لكنّها مازالت تنام وترى مثلي.

تحلم بجدجودة وتقول: خرْ...خرْ...خرْ...خرْ...خرْ... حتّى صباح آخر.

تونس

1995/11/2 ـ 1992/12/29

فهرس

هذا فهرس آخر من خارج الحكاية لكنّه يخرج منها بحكاية عن الحكاية

ص

بعيداً عن مملكة الأخيضر: .....

تجري الأحداث في مكان خارج المملكة. لكنه ليس بعيداً عنها؛ وفي زمان لاحق على زمنها، غير أن الحكاية حكاية، وهي من طول الانتظار ودوره في اتّقاد الخيال، تجعل منه زمناً انتظارياً، سابقاً على مملكة الأخيضر. والحكاية مثل الكلام والخيال، تأتي بدلاً من غائب أو مفقود أو محال، لتعايش انتظارها له بالكلام، وتملأ غيابه عنها بالخيال.

في الطريق إلى المملكة: ص....

هنا أيضاً، تستبق الحكاية حضور الغائب، بالكشف عن ماضٍ خفيّ، يُفترض أنه سابق على كلّ مجيء. لكنْ، ليس كل افترض حقيقة، على الرغم من حسن النوايا المتهيّئة لاستقبال الغائب كما نحبّ ونتمنّى.

في مملكة الأخيضر: ص...

آه! انتبهوا الآن: هذا هو جوهر الحكاية! نحن حالياً في مملكة الأخيضر حقاً!

البداية المفترضة: ص...

هي بداية لا تتطلّب كلاماً كثيراً، ولا خيالاً، ولا انتظاراً يعادل الانتظار الأوّل أو يشبهه. لم يعد الكلام بدلاً من غائب. ولم تعد الحكاية تعايش انتظارها، وتوَقُّدَ خيالها، في طلب الغائب، بل صارت تستغرق فيه بتعب أكثر وخيال أقلّ، لكنّه خيال من نوع آخر: ربّما كان مستقبل الجميع.

الفهرس:

ص...

هو فهرس آخر، كما تبيّن أعلاه، من خارج الحكاية، ولو أنّه خرج منها بحكاية.

المؤلف

محمد علي اليوسفي

* محمد علي اليوسفي من مواليد مدينة باجة بالجمهورية التونسية 3 مارس1950
* متزوج وله أنسي ودانية.
* درس المرحلتين الابتدائية والثانوية بتونس ثم سافر إلى الشرق العربي حيث أتم دراسته الجامعية في جامعة دمشق وتخرج في قسم الفلسفة والعلوم الاجتماعية.
* تابع الدراسات العليا في الاختصاص ذاته بالجامعة اللبنانية خلال الحرب الأهلية.
* وفي الأثناء مارس الترجمة والكتابة والصحافة الثقافية في أبرز الصحف والمجلات السورية واللبنانية والفلسطينية.
* عاد إلى تونس ليستقر بها بعد عشرين عاما أمضى ثمانية منها في جزيرة قبرص.

* أعماله المؤلفة:

أ- في الشعر:

* حافة الأرض، دار الكلمة، بيروت 1988.
* امرأة سادسة للحواس، دار الطليعة الجديدة، دمشق 1998.
* ليل الأجداد، وزارة الثقافة السورية، دمشق 1998.
* ليل الأحفاد، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2008

ب – في الرواية:

* توقيت البِنْكَا[جائزة الناقد للرواية] رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1992.
* شمس القراميد،[جائزة كومار:الريشة الذهبية] دار الجنوب، تونس 1997.
* مملكة الأخيْضَر، دار الطليعة الجديدة، دمشق، سوريا 2001.
* بيروت ونهر الخيانات، دار الفارابي، بيروت 2002
* دانتيلا، دار الفارابي، بيروت 2005.
* عتبات الجنة، دار الفارابي، بيروت 2007

ج – في النقد:

* أبجدية الحجارة، بيسان برس، نيقوسيا، قبرص، 1988 .

* أعماله المترجمة:

أ ــ شعر:

* حرية مشروطة، أوكتافيو باث، الدار العالمية، بيروت 1983.
* مدائح النور، مختارات من الشعر اليوناني، دار الملتقى، ليماسول، قبرص1994.
* كنتُ شجرة وتكلّمْتُ بستانَ حروف، القصائد الشرقية لأوكتافيو باث، دار أزمنة، عَمَّان 2008

ب ــ رواية:

* حكاية بحار غريق، غابرييل غارسيا ماركيز، دار ابن رشد، بيروت 1980 . طبعة جديدة، دار ورد، دمشق 2008
* خريف البطريرك، غابرييل غارسيا ماركيز، دار الكلمة بيروت1981 . طبعة جديدة، دار المدى، دمشق 2005.
* البابا الأخضر، ميغيل أنخل استورياس، دار التنوير، بيروت1981 .طبعة جديدة، دار ورد، دمشق 2008
* نارایاما، شیتشیرو فوکازاوا، دار التنوير، بيروت 1982 . طبعة جديدة، دار ورد، دمشق 2008
* مملكة هذا العالم، أليخو كاربنتييه، دار الحقائق، بيروت 1982 . طبعة جديدة، دار ورد، دمشق 2008
* البيت الكبير، ألفارو سيبيدا ساموديو، دار منارات، عمان 1986 .
* ليلة طويلة جدا، كريستين برووِيه ، دار الجنوب، تونس 1994.
* بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة، داي سيجي، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، 2004

ج ــ سيرة :

* المنشق، سيرة نيكوس كازنتزاكي بقلم زوجته، دار الآداب، بيروت 1994 .

د ــ دراسات :

* بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ماكس هوركهايمر، دار التنوير، بيروت1981

* بلزاك والواقعية الفرنسية، جورج لوكاش، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس 1985.

*نظرية الدين، جورج باتاي، دار معد، دمشق 2007

* لو كان آدم سعيدًا، إميل ميشال سيوران، دار أزنة، عمَّان 2008

هـــ- سينما:

* الثورة الفرنسية في السينما، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2003

* قرن من السينما الفرنسية، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2005

و ــ رحلات

* من تونس إلى القيروان، غي دي موباسان، دار المدى، دمشق، 2004

* العديد من النصوص المترجمة (أشعار، قصص، دراسات) في الصحف والمجلات العربية منذ السبعينات وحتى الآن، لم أسع إلى حصرها.

العنوان الإلكتروني:
yousdali@yahoo.fr
yousfimedali@gmail.com

الموقع:
/ http://mohamed-ali-yousfi.blogspot.com

http://carmasutra.fr.gd